

# محاضرات في مادة الاستشراق

طلبة السنة الثالثة الدعوة والثقافة الإسلامية

نظام ل.م.د

السادس السادس

إعداد

الأستاذ محمد جميع

2020/2019

## مصطلح الاستشراق

### هوية الاستشراق:

يعد المصطلح قوام الحدث الفكري الدراسي، بتمثله الإستيمى، وعليه ينشأ التواضع عند غلبة الاستعمال حيال معنى من المعاني، والإعفاء من إبراز حدّ الاصطلاح أو الزهد فيه، يضيع الحد المطلوب من فهم المقصود لاقتناصه بمسالك النظر في العلم الذي يحاول الخوض فيه. وذووا الأعراف المنشئون لاصطلاحاتهم؛ يودعون مقاصدهم في عباراتهم يخرجها البيان والنظر في مركباتها واشتقاقاتها؛ من حيّز الإشكال والخصومة إلى حيّز التجلي والوضوح. فيفهمها المبتدئون ويحسنها المنتهون.

فتعريف المصطلح هو بيان عناصره الأساسية التي تتحدد من خلالها ملامح موضوعه وخصائصه المنهجية، وعلى غرارها يكون التأسيس لبناء موقف إستيمى نحو الموضوع. ومن هنا تأتي صعوبة التعريف نظرا للطبيعة المؤقتة في كثير من الموضوعات؛ لأنه كثيرا ما يعاد النظر في تعريف الدلالة الاصطلاحية لموضوع ما وتكون المفاهيم العرفية الناشئة مفتوحة على الأقل في بداية تكوينها، ويكون تنقيحها وتحويرها بصورة مستمرة، وقد تتسع حدود الأشياء أو تضيق أحيانا أخرى بمرور الزمان وتغيير الأحوال، وتحدد المعارف، وغالبا ما تغاير مآلات الأشياء والقضايا ما كان مسلما به طبقا لاتساع وضيق وتحديد معارفنا، ولأن تعريف الاصطلاح في أي فن؛ هو تحديد لصفاته وعناصره الأساسية تحديدا ثابتا لا زيادة فيه ولا نقصان؛ لأن دلالة الاصطلاح قوامها عنصران أساسيان هما: "جنس" موضوعه الذي ينتمي إليه في سياقه المنهجي، و"فصله" الذي يميزه عما عداه من سائر الموضوعات محل البحث التي تشترك معه في ذلك الجنس، وعليه فإن إخفاق أنساق الفكر الإسلامي في ضبط مصطلح الاستشراق أفضى إلى اختلال في قراءة الفكر الإسلامي للظاهرة الاستشراقية وانخراط مواقفه في ثلاثة اتجاهات؛ بين الانخراط المطلق إلى حد غياب الأنا، والرفض المطلق للتعاطي الإيجابي مع الظاهرة، وإلى الموقف الوسط بينهما في درجات متفاوتة بين الإفراط والتفريط بين الانخراط والرفض، مما غيب ذلك عن الفكر الإسلامي اتخاذ مواقف علمية رشيدة تحقيق بها احتواء الظاهرة بمنهج يتسق ومحددات الصراع الحضاري بين الأنا والآخر. واستقراء البواعث الحقيقية التي توجه الظاهرة في سياقها التاريخي، وبيان دوافعها الأساسية.

لقد خاض الفكر الإسلامي الحديث معارك شتى لاستبانة فحوى مصطلح الاستشراق وكشف هويته الحقيقية؛ من خلال تقصي المقاصد الحقيقية لدراساته المختلفة للمدونة التراثية الإسلامية وقضايا المسلمين التاريخية والاجتماعية.

يؤخذ الاستشراق orientalism عادة بعدة معانٍ متداخلة ومتكاملة ولعل أهم هذه المعاني؛  
 هو لمعنى الأكاديمي؛ حيث تطلق كلمة مستشرق . بشئ من التجاوز- على كل من يتخصص في  
 أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو من بعيد وحتى عهد قريب جدا ، كانت هذه  
 الكلمة تطلق على دارسي الآداب الشرقية أو اللغات الشرقية؛ أو المتخصص في تاريخ إحدى  
 الدول الشرقية، أو ما إلى ذلك ، ويبدو أن هذا الميل القديم لإطلاق مصطلح استشراق، على  
 كل هذه الدراسات المتعددة المتباعدة المتباينة بدأ الآن في الانحسار، إذ لا نكاد نجد عالما  
 أنثروبولوجيا مثلا، الذي يدرس إحدى الثقافات الشرقية، يسمي نفسه مستشراقا على غرار ما كان  
 يحدث في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن، فكلمة استشراق orientalism . وكلمة مستشرق .  
 orientalist آخذتان في الاختفاء في الأوساط العلمية والأكاديمية لتحل محلهما كلمات  
 أخرى أكثر دلالة على التخصص العلمي.

ولقد آلت تلك الجهود إلى اتجاهات متعددة في إيضاح مصطلح الاستشراق وإبراز حدّه تبعاً  
 لمواقف أصحابها من الظاهرة الاستشراقية. ففي الوقت الذي يذهب بعضهم إلى اعتبار  
 الاستشراق ميدانا علميا من ميادين الدراسة والبحث، يتجه آخرون إلى اعتقادهم أنه مؤسسة  
 غريبة ذات أهداف متعددة، في حين يرى اتجاه آخر أن الاستشراق ظاهرة طبيعية تولدت عن  
 حركة الصراع بين الشرق والغرب، أو في فهم أضيق نطاقا، بين الإسلام والمسيحية. وجماع هذه  
 الاتجاهات تندرج في قراءة الظاهرة الاستشراقية من زاويتين.

فالذي رأى الاستشراق من زاوية معرفية اعتقد الاستشراق هو معرفة الغربيين بالعالم الشرقي،  
 أو هو اتجاه الغربيين للبحث أو التخصص في الشرق ويشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين  
 الدراسات الشرقية وتجمع بين الانقطاع إلى درس بعض ما يخص شعوب الشرق من علوم وفنون  
 وآداب وديانات وتاريخ مثل الهند وفارس والصين واليابان، والعالم العربي وغيرهم من أمم  
 الشرق<sup>(1)</sup>.

وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية، وهو  
 أيضا تعاطي الحضارات القديمة، أو هو تقدير شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في  
 القرون الوسطى<sup>(2)</sup>.

(1) عفاف صيرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة. دار النهضة العربية. القاهرة 1980. ص 9 .

(2) من محاضرة ألقاها المستشرق ميكائيل أنجلو جويدي في الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة تحت عنوان (علم الاستشراق  
 وتاريخ العمران ) نشرتها مجلة الزهراء في عددها الصادر في ربيع الأول 1347هـ.

ومن كانت قراءته للظاهرة الاستشراقية من زاوية سياسية اعتبر أن الاستشراق هو جهود الغربيين لمعرفة الشرق بإصدار تقارير حولته ووصفه وفهمه بأسلوب متميز للسيطرة عليه والاستقرار فيه وحكمه؛ أي ظاهرة ثقافية نتجت أساساً عن توسع آفاق المعرفة الأوروبية ومحاولة العقل الغربي فهم الآخر والتعامل معه أملاً في احتوائه وتوجيهه ثم الهيمنة عليه<sup>(1)</sup>، فهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبائنه وامتلاك السيادة عليه<sup>(2)</sup>.

بيد أن ما ينبغي الإشارة إليه هنا هو الخروج عن إطار الدلالة الجغرافية للمصطلح؛ حيث لم يعد مصطلح الشرق قابلاً في حيزها؛ لأن الاستشراق أخذ بعداً ودلالة ثقافتين حدث بينهما تواصل تاريخي أعقبه تصادم قوامه دلالة أيديولوجية. أضفت على جدلية الدرس النقدي للخطاب الاستشراقي ديمومة حدائية صاغها مشهد الصراع السياسي المعاصر، وحركة التحرر التي غمرت شعوب العالم الثالث.

وعلى سبيل المثال أثناء حرب التحرير الجزائرية، أثر موضوع الاستشراق بشكل خاص، وكان مرتبطاً بالضرورة بالظاهرة الاستعمارية؛ لأن عدداً كبيراً من المستشرقين كان مرتبطاً بالمجتمعات الاستعمارية وإدارتها وقراراتها، ارتباطاً ينكشف في تجليات الأداء الوظيفي للمستشرقين.

الاستشراق: عند النظر إلى لفظة (استشراق) نجد أنها مصوغة على وزن استفعال، ومشتقة من مادة (ش ر ق) ، "وقد أضيف إليها الألف والسين والتاء لتعني طلب الشيء فيصبح المعنى: طلب لغات الشرق وعلومه وأديانه. أو التعرف إلى العالم الشرقي من خلال الدراسات اللغوية والدينية والتاريخية والاجتماعية وغيرها ولم نجد لها في القواميس العربية القديمة ذكراً أو تعريفاً، ولعل السبب في ذلك راجع إلى تأخر حدوثها.

وأمام هذه النقطة نجد لزماً علينا أن نعرف (الشرق) حيث جاء في لسان العرب: شرق: "شرقت الشمس تشرق شروقاً وشرقاً: طلعت، واسم الموضع: المشرق... والتشريق: الأخذ في ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرق ومغرب، وشرقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق، وفي الحديث: "لا تسقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا".

(1) إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ط2، 1984، ص 39. د ، شكرى النجار: لم الاهتمام بالاستشراق. مجلة الفكر العربي. عدد31. 1983. ص:71.

(2) محمد أركون في حوار أجراه معه الدكتور عبد الغني أبو العزم. مجلة الفكر العربي. عدد31. 1983. معهد الإنماء العربي للعلوم الإنسانية. بيروت. ص: 315.

والسؤال الذي يطرح نفسه: من هو الشرقي؟ ومن هم أهل الشرق؟ ذلك أن "مفهوم هذه الكلمة يتغير تبعاً لاختلاف المكان.. فالشرق يختلف بالنسبة للياباني أو العربي أو الألماني أوالانجليزي أو الأمريكي".

يقول المستشرق (رودي بارت): الظاهر أن اسم الشرق، تعرض لتغير في معناه، فالشرق بالقياس إلينا نحن الألمان يعني العالم السلافي، العالم الواقع خلف الستار الحديدي، وهذه النقطة يختص بها الاستشراق، فمكانه جغرافياً من الناحية الجنوبية بالقياس إلينا".

ويقول المستشرق (فلاديمير بارتولد): "وليس استعمال كلمة الشرق في تاريخ الحضارة متفقاً مع معناها الجغرافي اتفاقاً تاماً، فإن بلدان الشرق الأدنى المتحضرة كان يجب تسميتها في روسيا بالجنوب، وكذلك أفريقيا الشمالية التي تعد جزءاً من الشرق الإسلامي جنوبية بالنسبة إلى أوروبا، وابتداء استعمال كلمة الشرق بمعنى البلاد المتحضرة مقابلاً للغرب في عصر الإمبراطورية الرومانية".

ومما سبق يتضح لنا أن مصطلح المستشرق لا يقصد به القادم من الشرق وإن كان "هذا المعنى صحيح إلى حد كبير لولا أن أحد الأساتذة الكرام بحث في أصل الكلمة في معاجم اللغات الأوروبية وهي Orientalism فوجد أنها لا تعني الشرق الفلكي أو الجغرافي كما يقولون ولكن لها أصول أخرى تعني التعلم والمعرفة والتنوير، وأن الشرق الذي تبدأ منه الشمس حركتها إنما هو منبع الرسالات السماوية ولذلك كان على الغرب أن يسعى إلى العلم والمعرفة والنور. ولدينا دليل آخر على أن الاستشراق آت من كلمة التعلم والتفهم والتدريب أن السنة الأولى في الجامعات أو الأسابيع الأولى للموظف الجديد في وظيفته تسمى تدريب أو تعليم (Orientation).

أما تعريف الاستشراق اصطلاحاً.. فقد تنوعت التعاريف بتنوع مشارب المتصدين له ونذكر منها على سبيل العرض لا الحصر:

الاستشراق: وردت عدة تعاريف لكثير من المفكرين لمصطلح الاستشراق؛ كل حسب الزاوية التي تمت من خلالها قراءة الظاهرة الاستشراقية.

الاستشرق عند المفكر حمدي محمود زقزوق؛ هو علم العالم الشرقي وهو ذو معنيين: عام يطلق على كل غربي يشتغل بدراسة الشرق كله، أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته، ومعنى خاص وهو الدراسة الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وتاريخه وعقائده<sup>(1)</sup>.

(1) حمدي محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. كتاب الأمة. قطر. العدد: الخامس.

أما المفكر شكري النجار يرى الاستشراق أسلوباً غربي لفهم الشرق والسيطرة عليه ومحاولة إعادة توجيهه والتحكم فيه<sup>(1)</sup>. وهو متأثر إلى حد كبير بالمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد؛ الذي يعتقد أن الاستشراق هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقارير حوله وبوصفه وتدريبه والاستقرار فيه وحكمه، وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبناؤه وامتلاك السيادة عليه<sup>(2)</sup>.

ويعني الاستشراق عند الكاتب ميكائيل أنجلو جويدي؛ الجمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية، وهو أيضاً تعاطي الحضارات القديمة، أو هو تقدير شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى<sup>(3)</sup>.

هو "أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (انطولوجي)، ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق والغرب ... والاستشراق: نمط من السلطة الفكرية على الشرق داخل الثقافة الغربية، وبينغي أن تكون هذه السلطة إلى حد كبير موضوع أي وصفٍ للاستشراق، حتى اسم الاستشراق نفسه يوحي بأسلوب من المعرفة الخابرة".

"وهذا التعريف لا يركز على محتوى الاستشراق ونفوذه وسلطته ووظيفته، والحقيقة أن الاستشراق يجب أن ينظر إليه في شموليته كمستودع للمعرفة الشرقية، ومصدر لهذه المعرفة، يعود إليها المتخصصون وغيرهم في الغرب والشرق".

وعرفه آخرون بأنه: "ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع بينهما".

ويرى البعض أن الاستشراق: "مفهوم غير واضح المعالم لدى المفكرين العرب والمسلمين، وتعتمد قوة الحديث عنه على منطلقات المتحدث، ونجد أن المنطلقات متعددة، ومتفاوتة، فهناك من ينظر إلى الاستشراق نظرة الإعجاب التي تصل أحياناً إلى الانبهار، وهناك النظرة الراضية لكل ما يأتي عن الاستشراق مهما اصطبغ بالصبغة العلمية إلى درجة التشكيك في

(1) شكري النجار: لم الاهتمام بالاستشراق. مجلة الفكر العربي. العدد: 31. 1983م. ص: 71.

(2) إدوارد سعيد: الإستشراق. المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمة: كمال أبو ديب. ط2. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت. 1984. ص: 39.

(3) ميكائيل أنجلو جويدي: محاضرة ألقاها في الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة تحت عنوان "علم الشرق وتاريخ العمران" نشرتها مجلة الزهراء في عددها الصادر في ربيع الأول 1347هـ.

اهتداء من اهتدى.. وهناك النظرة التي لم تنبهر ولم ترفض وأخضعت نتاج الاستشراق لأحكام علمية خالصة فرفضت وقبلت".

وتبعاً لاختلاف نظرة المفكرين والمثقفين للاستشراق فقد اختلف في تعريفه كما سبق .  
تعريف المستشرق: وأول استعمال لكلمة (مستشرق) رأيناه سنة 1095هـ/1683م حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية، وفي سنة 1103هـ/1696م وجدنا "أنتوني وود" يصف "صموئيل كلارك" بأنه (استشراقي نابه).  
أما قاموس أكسفورد الجديد فيحدد المستشرق **Orientalist** بأنه "من تبحر في لغات الشرق وآدابه.

ويذهب "أحمد الإسكندري" و"أحمد أمين" في تعريفهما للمستشرق إلى أنه "كل من تجرد من أهل الغرب لدراسة بعض اللغات الشرقية، وتقصي آدابها طلباً لتعرف شأن أمة أو أمم شرقية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها ودياناتها، أو علومها وآدابها أو غير ذلك من مقومات الأمم، والأصل في كلمة (استشراق) أنه صار شرقياً، كما يقال (استعرب) إذ صار عربياً".  
ويرى "مالك بن نبي" أنه "يجب أولاً أن نحدد المصطلح: إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي، وعن الحضارة الإسلامية، ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى "طبقات" على صنفين:  
من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل "جربر دورياك" والقديس "توما الأكويني" وطبقة المحدثين مثل "كاراد وفو"، و"جولد سيهر".

أما المفكر اللبناني ميشال جحا، يعتقد أن المستشرقين؛ هم أولئك الأساتذة والباحثون الأكاديميون الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية والحضارة العربية وبقضايا العالم العربي والدين الإسلامي<sup>(1)</sup>.

كما يشير عفاف صبرة في رصده للاستشراق ومشكلات الحضارة، إلى أن المستشرقين مصطلح يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية؛ فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق؛ مثل الهند وفارس والصين واليابان، والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق<sup>(2)</sup>.

(1) ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا. ط1. معهد الإنماء العربي. بيروت. 1982.

(2) عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة. دار النهضة العربية. القاهرة. 1980م. ص: 9.

ويعاود إلى تحديد مصطلح "المستشرقون" أكثر ضبطاً في اعتقاده أنهم أولئك الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية<sup>(1)</sup>.

وثمة مفهوم آخر للاستشراق أكثر عمومية: هو اعتبار الاستشراق أسلوباً للتفكير يركز على التمييز الأنطولوجي والإبستمولوجي، بين الشرق والغرب، ولقد أدى هذا المفهوم بعدد كبير من الكتاب والفلاسفة والسياسيين، وحتى الإقتصاديين، ورجال الحكم والإدارة أيام الإستعمار، إلى أن يتقبلوا فكرة التمييز بين الشرق والغرب، كنقطة انطلاق لإقامة نظرياتهم وكتاباتهم الاجتماعية ودراساتهم المختلفة عن النمو الاقتصادي للشرق، وأفكارهم الخاصة عن الشعوب الشرقية ومصائرهما، وما إلى ذلك، هذا المفهوم الواسع الفضفاض لكلمة استشراق يسمح لنا بأن ندخل في عداد المهتمين بالشرق كل فئات الكتاب والمفكرين والأدباء وغيرهم، ممن عالجوا حياة الشرق في مؤلفاتهم، بصرف النظر عن ماهية هذه المؤلفات وبذلك يمكن أن تدرج أسماء، مثل: ((فيكتور هيغو)) و((ماركس)) وغيرهم، إلا أن هذا المفهوم يصطدم بعقبات كثيرة هامة تتعلق في الأغلب بالمنهج العلمي، وعليه أخذ الاستشراق مفهوماً أدق وأكثر خصوصية، وقد تمثل هذا المفهوم بوجه خاص، في المحاولات الكثيرة التي قام بها المتخصص في الدراسات الشرقية، لإقامة نظريات منهجية متماسكة ومنطقية، تعبر عن وجهات نظر محددة، وتستند إلى معلومات دقيقة ((ويقينية)) بقدر الإمكان، ثم تدريس هذه النظريات ومحاولة نشرها على نطاق واسع بحيث أصبح للاستشراق في آخر الأمر أسلوباً غربياً لفهم الشرق سياسياً واجتماعياً وأيديولوجياً وعلمياً والسيطرة عليه.

والقيمين بالذكر أن مصطلح استشراق، ومستشرق، "orientalism"، "orientalist"، وضعاً ليعبر عن هذا المنهج في بريطانيا سنة 1779م.

ويمكن أن نحدد للاستشراق مفهوماً جامعاً، فهو: دراسة بعض المفكرين الغربيين المتخصصين للإسلام وقضايا المسلمين ومعارفهم وتراثهم العقدي والتشريعي والاجتماعي والسياسي والأدبي والتاريخي، وأنماطهم الثقافية والحضارية ونظمهم وثوراتهم ومقدراتهم، سواء أكانت هذه الشعوب تقطن شرق البحر الأبيض أم الجانب الجنوبي منه، وسواء أكانت لغة هذه الشعوب العربية أم غير العربية كالتركية والفارسية والأوردية وغيرها من اللغات، بمنهج ذي خلفية فكرية تتسق مع معطيات الصراع الحضاري بين العالم الغربي والعالم الإسلامي؛ أو بين الفكرة الإسلامية المشروع والفكرة الغربية، يتقصد بها تحقيق أهداف مختلفة.

(1) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث. ط1. دار الإرشاد. بيروت. 1969م. ص: 5.



## الجدور التاريخية للاستشراق

### كلمة لابد منها:

انداحت دائرة الإسلام في أرجاء المعمورة حتى بلغت جبال الصين شرقا وحدود فرنسا غربا، في نحو قرن من الزمان، هيمن الإسلام على العالم كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو نظرت في خارطة العالم القديم لعينت مصداق خبره صلى الله عليه وسلم، خاصة إذا لاحظت أن قارتي أمريكا وأوقيانوسيا. لم تكونا معروفين آنذ، وأن بقاع العالم التي لم يدخلها الإسلام والمسلمون لم تكن ذات شأن يومئذ.

والتخلف والجهل، والفقر والمرض، والفوضى والظلم، والضعف والخمول، كانت سمات المجتمعات الإنسانية يومئذ، إلا من نور الله قلوبهم بالإسلام.

انبهر الغرب بتقدم المسلمين العظيم، فأراد أن يتلافى بعض تخلفه، فراحت بعثاته تتلقى العلم والنور من الأندلس وصقلية، وهذا في الواقع مطلع الاستشراق، وقد تلقى أبناء الغرب عن علماء الإسلام مختلف العلوم، إذ لم يضمنوا عليهم بشيء، فتعلموا الطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك.. إلخ، كما أتاحت لهم فرص ثمينة لمعرفة الإسلام وعلومه من مركزي الإشعاع الإسلامي في الغرب ((الأندلس وصقلية)).

ونبع كثيرون بعضهم رهبان، وقد توالى البعثات على الأندلس منذ استقر المسلمون فيها، وفي أوائل القرن الخامس الهجري أرسل جورج الثاني ملك إنجلترا ابنة أخيه الأميرة ((دوبانت)) على رأس بعثة من ثمان عشرة فتاة من بنات الأمراء والأعيان إلى إشبيلية بمرافقة النبيل ((سفيلك)). رئيس موظفي القصر الملكي وأرسل معه كتابا إلى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس جاء فيه بعد الديباجة.

((وقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة. فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم، لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد أرسلنا ابنة شقيقنا الأميرة ((دوبانت)) على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتتشرّف بلثم أهذاب العرش والتماس العطف، ولتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة وحذب من

لندن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقاسكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص..

من خادمكم المطيع... (جورج))

وقد رد الخليفة هشام الثالث على ملك إنجلترا ((جورج)) برسالة جاء فيها: ((لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعينهم الأمر على طلبكم، وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي، أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وبالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية وهي من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا والسلام.. خليفة رسول الله على ديار الأندلس .. هشام)).

وظلت توفد إلى معاهد غرناطة وإشبيلية وغيرهما بعثات من فرنسا وإيطاليا والأراضي الواطئة، لتنهل من الحضارة الإسلامية العربية التي لم تكن بموازاة مع تلك المناطق بشعوبها كما نوه بذلك أحد رجالات الفكر الغربيين، وهو جوستاف لوبون: ((... وإذا أراد المرء تصور تأثير الشرق (العالم الإسلامي بحضارته) في الغرب وجب عليه أن يتمثل حال الحضارة التي كانت عليها شعوبها المتقابلة، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب (المسلمين)، وأما الغرب فكان غارقا في بحر من الهمجية)).

غير أن كثيرا من طلاب العلم في هذه البعثات كانوا يعجبون بالحياة الإسلامية، وتقاليدها وثقافتها حتى إن بعضهم اعتنق الإسلام وفضل البقاء بالأندلس ولم يعد إلى بلده، وأحدثت تعاليم الإسلام والمسلمين انقلابا فكريا في الكثير فعادوا إلى بلادهم وصاروا ثورة على الكنيسة ولعنة على تعاليمها.

وظل الغرب عالة على علوم المسلمين، ولما نشطت الدراسة فيه كانت كتب العرب هي المصادر العلمية الأصلية في جامعاته، وظلت بعض جامعاته في النمسا تدرس بعض كتب الطب العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر.

## البدايات الأولى للاستشراق

لقد أخفقت جهود الأعلام الذين عنوا بدرس الظاهرة الاستشراقية كما أبرزنا حدها في تكشيف هوية المصطلح وتفكيك مرموز الاصطلاح؛ في حفرياتهم عن الجذور الأولى التي حركت العقل الغربي نحو درس الإسلام وقضايا المسلمين ومعارفهم وتراثهم العقدي والتشريعي والاجتماعي والسياسي والأدبي والتاريخي، وأنماطهم الثقافية والحضارية ونظمهم وثروتهم ومقدراتهم، بمنهج ذي خلفية فكرية تتسق مع معطيات الصراع الحضاري بين العالم الغربي والعالم الإسلامي؛ يتقصد بها تحقيق أهداف مختلفة، ومرد هذا الإخفاق إلى التباين الشديد في تحديد ماهية الاستشراقية، وفلسفته الحقيقية، واعتماد بعضهم على مقولات المستشرقين أنفسهم التاريخية، حتى أن بعضهم تطرف في رد نشأته إلى فترة ما قبل الميلاد<sup>(1)</sup>. وأصحاب هذا الاتجاه من الذين يعتقدون الاستشراق بمعناه العام في بعده الجغرافي<sup>(2)</sup>.

يبد أن هناك اتجاه ثاني؛ يرجع الجذور الأولى للاستشراق إلى الحراك التصادمي في أنماطه الجدالية بين طوائف مسيحي الكنيسة الشرقية والمسلمين إثر اتساع رقعة الفتح الإسلامي على أطراف الشام الكبير والجزيرة ما بين النهرين، مما حدى ببعض زعماء تلك الطوائف أن يؤطروا ذلك السجال إزاء ما أحرزوه من حرية الآداء الاعتقادي وما منحوه من الآداء الاجتماعي في الدولة الإسلامية؛ إذ كان منصور بن سرجيوس وزيراً للمالية في الدولة الإسلامية في خلافة معاوية بن أبي سفيان ما بين 676هـ و749هـ. فقام حفيده الراهب يوحنا الدمشقي (676هـ/749هـ)؛ وكان من أصحاب الحظوة في قصر الخلافة، قام هذا الأخير بإعداد مصنفين: الأول؛ في طرائق الحوار ومجادلة المسلمين بعنوان: (محاورة مع مسلم)؛ والثاني؛ (إرشاد النصارى في جدل المسلمين)، وكان الهدف منه إرشاد النصارى في جدل المسلمين لتحسينهم من الارتداد.

وهناك اتجاه ثالث؛ يعزي منطلقات الاستشراق الأولى إلى القرن العاشر الميلادي إثر توجه بعض الأوربيين إلى ديار الأندلس حاضرة العالم الإسلامي في أواخر الخلافة الأموية وكان أبرزهم ومتقدمهم الراهب جريرت دي أورلياك Gerbert d'Aurillac (938 \_ 1003م)<sup>(3)</sup> من الرهبان

(1) محمد فتح الله الزبدي: الاستشراق . أهدافه ووسائله . المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان. طرابلس/ ليبيا. 1، 1998م.

(2) حمدي محمود زفوق: المرجع السابق.

(3) راهب فرنسي انتخب في الثاني من شهر تشرين الأول من عام 999م؛ بابا لكنيسة روما الكاثوليكية، قصد الأندلس وتعلم هناك العربية وكثيراً من العلوم التقنية التي أبدعها أو صاغها المسلمون، ويعود إليه الفضل في تفعيل الترجمة من العربية إلى اللاتينية اللغة السائدة عندئذ، وتشجيع انتشار العلوم العربية إلى التعلُّمي الأوربي، كما له الفضل أيضاً في إدخال الساعة ذات الميزان والأرقام العربية إلى فرنسا.

البندكتيين، الذي قصد الأندلس وتعلم العربية وبعض العلوم على أساتذة دور العلم ومدارس ريبول وإشبيلية وقرطبة في تلك الديار، حتى أصبح أوسع علماء عصره ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك، ولما عاد إلى مجتمعه سما على أقرانه فاستوعبته الكنيسة بحفاوة كبيرة لما وجدت فيه ضالتها ونصب حبرا أعظم على رأس كنيسة روما عام 999م؛ حيث أمر بإنشاء مدرستين الأولى بروما مقر قيادة الكنيسة الكاثوليكية، فكان أول فرنسي يحظى بهذا المنصب، ولقب باسم سلفستر الثاني، والمدرسة الثانية في رايمس مسقط رأسه، ثم أضيف إليها مدرسة شارتر<sup>(1)</sup>.

وهناك اتجاه رابع يرى أن بداية الإستشراق تعود إلى ظهور أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم ترجمة كاملة إلى اللاتينية<sup>(2)</sup> برعاية الراهب بطرس المكرم، مع إعداد أول قاموس لاتيني عربي<sup>(3)</sup>.

أما الاتجاه الخامس، وهم أولئك الذين يربطون بدايات الاستشراق بتوجه العقل الغربي إثر فشل الحروب الصليبية التي انطلقت في منتصف القرن الثاني عشر على المواجهة لحماية السلطة بقيادة الكنيسة لمجتمعاتها في الأراضي الخاضعة لسلطانها أمام زحوف حملة العقيدة الجديدة التي حمل راياتها الفاتحون إلى مشارف جبال البرانس والألب بجنوب فرنسا، وعليه اقتنع هؤلاء القوم أنه لا يمكن الانتصار على المسلمين عسكريا وهم متمسكون بدينهم، بيد أنه لكي يتم قهرهم والسيطرة عليهم يجب الفصل بينهم وبين دينهم عن طريق ما عرف فيما بعد بالغزو الفكري<sup>(4)</sup>، مما دفع بالأوروبيين إلى الاشتغال بتعاليم الإسلام وعاداته لتلبية حاجاتهم في هندسة الصراع الحضاري بين العالم الغربي (النصراني) والعالم الإسلامي (الشرقي) صراعا في بعده الأيديولوجي العقدي (الديني)؛ لأن الإسلام غدا يمثل في المخيال الغربي مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوروبا على مستويات مختلفة<sup>(5)</sup>.

بيد أن هناك اتجاه سادس يعتقد أصحابه أن الاستشراق نشأ في بداية القرن الرابع عشر إثر انعقاد مجمع فينا الكنسي في عام 712هـ / 1312م الذي أوصى أعضاؤه بإنشاء كراسي

(1) محمد قطب: المستشرقون والإسلام. مكتبة وهبة. القاهرة. 1999م. ط1. ص: 22.

(2) تكاد تجمع الكتابات الحديثة والمعاصرة على أن الترجمة التي قام بها كل من الراهب روبرت أوف تشيستر وهرمان الدلماطي بإيعاز من الراهب بطرس المكرم رئيس دير كلوني بجنوب فرنسا إلى اللاتينية هي أن أول ترجمة كاملة لمعاني القرآن الكريم، والحقيقة غير ذلك كما سنبين ذلك لاحقا.

(3) محمد فتح الله الزيايدي: الاستشراق أهدافه ووسائله. دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون. المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان. طرابلس/ ليبيا. ط1. 1998م. ص: 24.

(4) محمد فتح الله الزيايدي: المرجع السابق. ص: 25.

(5) منذر معاليقي: الاستشراق في الميزان. المكتب الإسلامي. بيروت/لبنان. ط1. 1997م. ص: 16.

بالجامعات الأوروبية للغات الشرقية عامة واللغة العربية خاصة، وبرز التركيز على هذا المقرر للحاجة الملحاح لذلك، في إقرار البابا "إكليمنس الخامس" ضمن التشريع الحادي عشر؛ الذي قضى بتأسيس كراسي لتدريس اللغة العبرية والعربية واليونانية والكلدانية (السريانية، الآرامية) في الجامعات الرئيسية<sup>(1)</sup>.

ولا غرو أن هذا القرار هو امتداد لدعوة مؤسس النشاط التنصيري في العالم ومأسسته الإسباني رايموند لول (1316/1235م)<sup>(2)</sup>؛ لإنشاء كراسي للغة العربية في أماكن مختلفة، ويشير بعض الباحثين إلى أن هذا القرار كان الغرض منه تنصيرياً صرفاً وكنسياً لا علمياً<sup>(3)</sup>.

وهناك اتجاه سابع يعتقد أصحابه أن الجذور الأولى التي شكلت منطلقاً للدراسات الاستشراقية، تعود إلى بداية القرن السادس عشر حين لاحت بوادر الإصلاح الديني الأوروبي التي قاد حركتها مارتن لوثر القسيس والراهب الألماني (1546/1483م)؛ حيث اتجه رواد هذه الحركة ومن نازلهم على حد سواء، إلى المصادر العبرانية لاعتقادهم أنها مضاناً لأصول تعاليم المسيح، وحيث هناك تداخل تاريخي بين تلك المصادر والمصادر الإسلامية؛ إذ شكل كثير من الأعلام اليهود الذين نشأوا ولاذوا إلى الحواضر الإسلامية في أوج ازدهارها فراراً من البطش بهم من قبل الطوائف النصرانية؛ شكل هؤلاء وسيطاً في نقل العلوم والمعارف من وإلى العربية. فغدت الصلة وثيقة بين المنظومتين المعرفيتين (العربية والعبرية) تاريخياً في جذورهما السامية. وعلى غرار ذلك؛ اتجه العقل الغربي نحو الحفر في المنظومة الفكرية والمعرفية الإسلامية، فرأت بعض الدوائر الكنسية الصليبية الفرصة سانحة لاستثمارها في إيقاف زخوف الإسلام التي أربكت سلطانتها على مجتمعاتها<sup>(4)</sup>.

(1) إدوارد سعيد: الاستشراق. المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمة: كمال أبو ديب. ط2. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت/ لبنان. 1984م. ص: 328.

(2) وقيل راموندوسلولوس (1232م) حسب مترجم كتاب "تاريخ حركة الاستشراق ليوهان فوك" إسباني من جزيرة مالاقا (لعلها مالطة) من الدومينيكان ثم تحول فيما بعد إلى الفرنسييسكانية، وهو أول من أطلق دعوة إلى التنصير المنظم للوقوف أمام زخوف الإسلام عبر الفتوحات الإسلامية في عام 1265م، وبدأ تسويق فكرة السيطرة على الشرق بالتنصير لا بالحروب في الأوساط السياسية العسكرية والكهوتية، وقد تعلم اللغة العربية على يد رقيق مغربي، واستمات في النشاط التنصيري بشمال أفريقيا حتى وافته المنية بها، أنظر. يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق. الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين. ترجمة: عمر لطفي العالم. دار المدار الإسلامي. بيروت/ لبنان. ط2. 2001م. ص: 28/27.

(3) عبد اللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية. دراسة نقدية. ترجمة وتقديم: قاسم السامرائي. عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض. 1991م. ص: 183.

(4) منذر معاليقي: المرج السابق - علي بن ابراهيم الحمد النملة: ظاهرة الاستشراق مناقشات في المفهوم والارتباطات. موسوعة الدراسات الاستشراقية. الرياض. ط2. 2003م. ص: 36.

ويذهب بعض من عنوا بالرصد التاريخي للظاهرة الاستشراقية في اتجاه ثامن إلى أن نشأة الاستشراق تعود إلى حملة نابليون بونابرت على مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ إذ شكلت نقطة انطلاق العقل الأوربي في حركة فكرية للتعرف على الشرق بمضامين الحضارية والأيدولوجية، على الرغم من تصنيف الحملة ضمن الحملات العسكرية، إلا أن اصطحاب نابليون بونابرت لعدد من رجال الفكر والباحثين العلماء، وإدخال المطبعة إلى مصر حاضرة الشرق في ذلك الوقت، كل ذلك يعتقد أصحاب هذا الاتجاه مبررا تاريخيا لاعتماد هذه المرحلة منطلقا للدراسات الاستشراقية<sup>(1)</sup>.

وقد شاع اتجاه تاسع عن بعض المؤرخين للظاهرة الاستشراقية أن البدايات الحقيقية للإستشراق كانت مزامنة - أو سابقة سبقا تمهيديا - لحقبة الاستعمار الأوربي للعالم الإسلامي، شرقه وغربه. وقد اتاح المستعمرون المستشرقين كثيرا في حقبة الاستعمار، إذ كان رهط من المستشرقين يعملون مستشارين في وزارات الحربية والخارجية والاستعمار في البلاد المستعمرة كإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا. وهذا رأي تشهد له الوثائق وتقر به الحوادث. ولكنه لا يقف شاهدا على نشأة الاستشراق، فالاستشراق كان موجودا قبل حقبة الاستعمار، وعلم به المستعمرون فقتربوا منهم المستشرقين، وأفادوا منهم كثيرا في رسم استراتيجيات الاستعمار، وصاحب المستشرقون المستعمرين في غزو البلاد الإسلامية، كما صاحب المستشرقون الصليبيين من قبل. ونستطيع القول إن الاستشراق قد ازهر في حقبة الاستعمار. وزادت رحلات المستشرقين إلى العالم الإسلامي، وزادت معها محاولاتهم لنقل ما بقي من تراث المسلمين إلى المكتبات والمتاحف الأوروبية والأمريكية فيما بعد. وقد قيل إن هذا النقل قد جاء في مصلحة هذا التراث، من حيث حفظه والعناية به<sup>(2)</sup>.

(1) محمد فتح الله الزيايدي: المرجع السابق.

(2) علي بن ابراهيم الحمد النملة: المرجع السابق. ص: 38/37.

## دوافع الاستشراق

إن عملية استنباط الدوافع الأولى التي حركت العقل الغربي . إثر مشهد الصراع الحضاري بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية . في اتجاه دراسة الشعوب الإسلامية في منظومتها المعرفية، النقلية والعقلية، والمنظومة الاقتصادية والسياسية، لا تتيسر خارج عملية الرصد التاريخي لحركية الوصل المعرفي والاجتماعي وارتكاساتهما في انطباعية العقل الغربي إزاء منظومته المعرفية اللاهوتية((التعاليمية))، وعليه فإننا ننتخب ثلاث محطات تاريخية، أفرزت آثاراً على المستوى النفسي، والاجتماعي، والعقلي، تحمل على السلب في نظر النخبة اللاهوتية المتسلطة، تشكل الدوافع الأولى لتشكيل هذا النمط التعامل مع الفكرة الإسلامية، من قبل المفكر الغربي بخلفية أيديولوجية، وبعد براغماتي تسلطي.

### المحطة الأولى (الدافع الأول):

قد أشرنا سابقاً، أن الاستشراق بدأ بتلك الثلة من الرهبان وغيرهم، واستمر كذلك حتى عصرنا الحاضر وهؤلاء كان يهمهم أن يطعنوا ويشوهوا محاسن الإسلام ويحرفوا حقائقه، ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية، أن الإسلام . وقد كان الخصم الوحيد للمسيحية في نظر الغربيين . دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج وسفاكوا دماء، يحثهم دينهم على اللذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلق، وبعد استقرار العرب، وشيوع اللغة العربية بين المستعربين والمسلمين الجدد. فقد شهدت الأندلس انصرافاً قوياً من الشباب إلى الثقافة الإسلامية واللغة العربية لدرجة أطراح ما عداهما من المعارف. وفي هذا الصدد ما أبلغ شكوى الأسقف ألفارو Alvaro de Cordoba أسقف قرطبة، وذلك سنة 240هـ/ 854م حيث من انصراف الشباب الإسباني عن اللغة اللاتينية والثقافة النصرانية، وهو يعنى فيها على إخوانه في الدين أنهم نسوا حتى لغتهم اللاتينية<sup>(1)</sup>.

ثم احتد هجومهم بعد أن رأوا الحضارة المعاصرة قد زعزعت كيان عقيدتهم، وأخذت تشككهم في تعاليم رجال ديانتهم لصرف أنظار الغربيين عن نقد عقيدتهم وكتبهم المقدسة.

(1) يقول ألفارو، "إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، لا لتفنيدها بل لتعليم أسلوب عربي بليغ، وأسفاه إنني لا أجد اليوم عالماً يقبل على قراءة الكتب الدينية، والإنجيل بل أن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون عالماً أو أدبياً ولا لغة إلا العربية، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في نهم، ويجمعون منها مكتبات ضخمة، تكلفهم الأموال الطائلة، في الوقت الذي يحترقون فيه الكتب المسيحية وينبذونها " خالد عبد الحليم السيوطي، "الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس" في: (ابن حزم الخزرجي) دار قباء، القاهرة، 2001م، ص 74.

وحين اشتدت حملة الصليبيين "الإسبان" في القرن الثالث عشر الميلادي، الذين وفدوا من ديار الغرب المجاورة لحضارة المسلمين بالأندلس، واحتد الصراع بينهم وبين المسلمين، دعا ((ألفونس)) ملك قشتالة ((إسبانيا)) قديما - دعا- "ميشيل سكوت" ليقوم بالبحث في علوم المسلمين وحضارتهم على ما أشار إلى ذلك الدكتور علي جريشة في كتابه: ((أساليب الغزو الفكري))، فجمع "سكوت" طائفة من الرهبان الذين درسوا على المسلمين ونهلوا من حضارتهم ومعارفهم وبرعوا في العلوم العربية بالأندلس، جمعهم "ميشيل سكوت"، وللإشارة أن هذا الأخير كان أول من أدخل ترجمات كتب ابن رشد إلى أوروبا، فاكسب لقب مؤسس ((الرشدية)). والذي اتهمه "روجريكون" بانتحال عمل غيره لجهله بالغات والعلوم التي هي موضوع كتبه، جمعهم . سكوت . في إحدى الأديرة وشرعوا في ترجمة بعض الكتب من اللغة العربية الى لغة الغرب، ثم قدمها "سكوت" وكان من بينها ترجمة القرآن الكريم، قدمها لملك صقلية الذي أمر عندئذ باستنساخ نسخ منها، وبعث بها هدية الى جامعة باريس، ويشير المستشرق الألماني "روديارت" في كتابه: ((الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية)). ترجمه مصطفى ماهر. إلا أنه أعقب هذه الترجمة للقرآن الكريم وبعض كتب المعارف الأخرى، أعقبها ظهور بعض الكتابات الاستشراقية التي تتناول سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وبعض الشخصيات الإسلامية التاريخية.

وتلي تلك الجهود في القرن السادس عشر ما قام به الإسبان والبرتغال، بأعنف ما شهده التاريخ البشري من التعصب الديني والإرهاب، ويصور جانبا من مرحلة الأسى والحزن، الحدث التاريخي الذي صنعه الكاردينال "خمنزديسينو jiminezde cisnero" وكان ذا مكانة دينية في أسبانيا(قشتالة)، فدعا إلى إكراه بقايا المسلمين الذين كانوا يعرفوا وقتذاك "الموريسكو Moriscos" على التنصر وترك الإسلام، ولكي يقطع صلتهم بالعلوم الإسلامية، أشار بحرق كتب المسلمين، لدرجة القيام بالتخريب والدمار وحرق الكتب والنهب كما حدث لقرطبة عام (540هـ). حيث عاث الجنود النصارى في الحي الشرقي لقرطبة ومزقوا المصاحف، وأحرقوا الأسواق وكان مثل ذلك العمل مدعاة للتنديد من قبل النصارى المعتدلين فيما بعد أمثال المؤرخ الألماني يوسف أشباخ الذي أدان ذلك العمل<sup>(1)</sup>.

ويذكر الكاتب (عبدا لجليل شلبي) في كتابه: ((صور أرستقراطية)) إلى أنه أنشئت محاكم التفتيش ليس فقط لحرق كل من لم يردعن الإسلام، ولكن أيضا لحرق كل نصراني لا يدين بالمذهب الكاثوليكي، وبالنسبة للبرتغال، فان الإمبراطور "فيليب الثاني" أصدر قانونا في

(1) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبدا لله عنان، القاهرة. 1958م، ص230.



سنة 1556م، يحرم على بقايا المسلمين فيها كل شئ يربطهم بالإسلام حتى لغتهم وأساليب معيشتهم، وبلغ من غلوائه أن اعتبر الحمامات التي أنشأها المسلمون هناك، بقايا نجسة فأصدر قرارا بهدمهما.

### المحطة الثانية (الدافع الثاني):

كان نفوذ الكنيسة سائدا في العصور الوسطى، وأثناء الحروب الصليبية ازداد هذا النفوذ عظمة، وأصبح للبابوية سلطة نافذة على الملوك وطبقات الشعب. ولا عجب أن يكون للكنيسة ذلك اليد الطولى في تحريك الحروب الصليبية لأن الكنيسة في هذه الفترة من الزمان "فترة العصور الوسطى" بلغت من النفوذ في العالم حدا جعل البابا في نظر المسيحيين آئذ ملك الملوك وأمير الأمراء، مما حدا بالكنيسة أن تنظم أمورها على أساس إقطاعي أدى إلى إحكام الصلة بين الكنيسة والجهاز السياسي في أوروبا الغربية كلها، وأثرت الكنيسة ورجالها إثراء فاحشا مما دعا رجالها إلى الانغماس في الترف والإغراق في الشهوات واشتهر الكثير منهم بالتفسخ الأخلاقي.

فمثلا في منتصف القرن الحادي عشر "1050م" وما بعدها؛ وهي فترة انطلاق الحروب الصليبية من أوروبا الغربية ضد الشرق الإسلامي لتخليص بيت المقدس. كان شأن الكنيسة حينئذ آخذا في التسامي، وحتى جاء وقت البابا، "جرجوري السابع. 1070 - 1085م" فوقف من الأباطورية موقفا عنيدا لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية وبأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسية والدينية.

وعن طريق سلاح الحرمان والطرده من رحمة الكنيسة استطاع جريجوري السابع أن يخضع الجميع فأخذ البابا منذ ذلك الوقت يعامل ملوك أوروبا وأمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوهم، فاعتبر البابا نفسه العالم المسيحي بأجمعه، فأخذ يمد أنفه إلى كل ركن من أركان البناء الاجتماعي والسياسي لغرب أوروبا، زيادة على الهيئات الدينية.

ولهذا الصراع على زعامة لحروب الصليبية وتبني قيادتها بين الكنيسة وملوك أوروبا، آثارا على الساحة الفكرية.

فمما تميزت به الشعوب الأوروبية المسيحية أنها كانت غارقة في الأمية إلى أطنابها إثر تحركها إلى الحروب الصليبية. وكان الغالب منهم لا يتصور من العالم إلا المحيط الذي يعيش فيه، ولم تكن لهم معلومات ولا صور صحيحة عن بلاد الشرق وعن المسافة التي تفصل بينهم

وبينه، وحتى عن المناطق والأقطار التي يجب عليهم اجتيازها وسلوكها، فكان من أهم ما استفادته هؤلاء الصليبيون الخبرة والمشاهدة وإدراك صورة صحيحة عن المجتمع المسلم وبلاد الشرق. وقد رجع آلاف الغزاة الصليبيين إلى بلادهم على أعقابهم مدبرين بعد هزائمهم التي ما فتئت تترى على حملاتهم المسعورة على العوالم الإسلامية، غير أن الكثير منهم حملوا إلى بلادهم وشعوبهم أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وجعلوا عليها دين التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص، وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة، فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة وذوي ود ووفاء وفضل ومجاملة، كما أشار إلى ذلك محمد عبده في كتابه "الإسلام والنصرانية"، ويذكر حسين مؤنس في كتابه "الشرق الإسلامي في العصر الحديث": ((..أن أوروبا لم تجد في الحروب الصليبية سبيلا للاتحاد الداخلي فحسب ومؤثرا جديدا في شتى مرافقها الداخلية، ولكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة، وقد كان هذا الاتساع في مدى النظر أكبر ما اكتسبته من الحروب الصليبية إذا أضفنا إليه روح الكشف وتقدم الجغرافية..)).

وقد وجد الصليبيون أنفسهم أمام حضارة إسلامية ذات إشعاع عظيم، فبهزم هذا الإشعاع ولمسوا التفوق السياسي والتنظيم الاجتماعي عند المسلمين، فعاد ويحملون انطباعاتهم وينشئون الدعوة إلى إصلاح شامل يبدأ بتحرير الفكر وبتهيئ التبادل الفكري والمادي ويصون الحرية الفردية ويكفل للرعية الرفاهية والطمأنينة كما نوه بذلك "أغاخان زكي علي" في كتابه: "أوروبا والإسلام" ولما ألحق بالصليبيين الهزائم وجد ملوك إنجلترا وألمانيا فرصة سانحة للثورة على الكنيسة فمهدوا الطريق أمام مفكري أوروبا، مما حدا بهم إلى الثورة على تعاليم الكنيسة داعين إلى حركة إصلاح ديني، فكان مدعاة إلى البحث في أصول الديانة المسيحية وجذورها العبرية ولما للعبرية من صلة وثيقة بالعربية فعادوا إلى كثير من المصادر العربية المسيحية. فكانت نواة لتوجه الأوربيين إلى دراسة اللغة العربية وآدابها ولم لهذه الأخيرة من صلة كبيرة بمصادر الدين الإسلامي. كما أشار إلى ذلك الدكتور منذ معاليقي في كتابه: "الاستشراق في الميزان" (..إن حركة الاستشراق انتشر صيتها، وذاع أمرها، بعد حركة الإصلاح الديني الأوربية التي اتجهت إلى الكتب العبرانية، بحكم شروحاتها الدينية، ومنها إلى الدراسات العربية والإسلامية، وغنها تلاقت مع أبعاد التبشير في غاية واحدة، وكونا أقنوما واحدا، اعتمدت الرغبة الدينية المسيحية فيه،

طريقة التبشير للوصول إلى المسلمين وجذبهم إلى معتقدها، واستطاعت مفاعيله أن تحدث تغييرات في التصورات الذهنية والعقلية، وأن تؤثر في الأنشطة السياسية والقضايا الأيديولوجية<sup>(1)</sup>. وبرز للوجود الحقد الذي ظل كامنا لفترة كبيرة أيام انتصار المسلمين وهزائمهم المتكررة، واستغل رجال الكنيسة أن يغرسوا هذا الحقد الدفين في نفوس الكثير من الأجيال الأوروبية، كما يشير إلى ذلك صاحب الكامل في التاريخ: ((أن بطرك بيت المقدس خرج مع كثير من مشهوري الصليبيين وفرسانهم حين فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس ولبسوا السواد و أظهروا الحزن على ذهاب بيت المقدس من أيديهم ودخلوا بلاد الإفرنج يطوفونها ويستجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الأخذ بشأر بيت المقدس وصوروا المسيح وجعلوا صورة رجل مسلم أمامه، والعربي يضرب المسيح وقد جعلوا الدماء تسيل على صورة المسيح وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله)).

ويذكر صاحب كتاب ((النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)): ((أنهم صوروا قبر المسيح وصوروا أيضا على القبر فارسا مسلما و قد وطأ قبر المسيح وبال الفرس على القبر وأنهم أبدوا هذه الصورة وراء البحر "في بلادهم" في الأسواق والمجامع والقسس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثور)).

وقصارى القول أن ظروف الحروب الصليبية في الشام ومصر كانت مدعاة إلى اندلاع حركة الإصلاح الديني التي شكلت حافزا على معرفة اللغة العربية ووسائلها من الآداب والنصوص الدينية المرتبطة بها ارتباط الجنين بالأم، وجاءت فترة ثار حقد الصليبيين الكامن نتيجة تلك السلوكات النفسية التي مارسها رجال الكنيسة لزرعه في نفوسهم فالتفتوا إلى سرّ قوة المسلمين الحضارية وأسباب انتصاراتهم فراحوا يبحثون في مصادر ثقافتهم وحركتهم العلمية (أي المسلمون) ومدركاتهم لمجالات الحياة وضروب الوجود، واستغلوا جهودهم في إضعاف هذه القوة لدى المسلمين، وحماية أجيالهم التي أثر فيها بريق الحضارة الإسلامية، بوسائل مختلفة طابعها فكري.

#### المحطة الثالثة (الدافع الثالث):

يربط الأستاذ حسن الخربوطلي، أحد الباحثين في هذا الاتجاه بين ظهور الاستشراق، وبداية الصراع في صورته الأيديولوجية البراجماتية، بين أوروبا والعالم الإسلامي حين ضعفت قبضة الدولة العثمانية، التي كانت تضرب سياجا من العزلة منع الأوروبيين من الاتصال بالشرق ردها من الزمن، وتحولت إلى الجسد المريض، وتكالت عليها الدول الكبرى؛ فأحيت العصبية

(1) مندر معاليقي: الاستشراق في الميزان. ط1. المكتب الإسلامي، بيروت. 1997م. ص: 16.

الوطنية الضيقة، وخلفت نزعات عرقية وجنسية، بغية إيجاد الركائز الانفصالية . الوطنية والقومية . التي تميزت . حسب المخطط المشبوه . بقيم مستقلة ومتغايرة<sup>(1)</sup> .

كانت إزاء ذلك حملة الغرب على الدولة العثمانية عنيفة ومستمرة، تمثلت في عشرات المؤامرات والتكتلات بين القوى المختلفة لتمزيق تركيا وتقسيمها، وكان مخطط الغرب قد أعدّ منهجا سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا، واتخذت أول الأمر سبيل الحصار الاقتصادي فكانت الحرب الاقتصادية بالتجارة والطواف حول رأس الرجاء الصالح .

فتصافرت جهود رجال السياسة ورجال الفكر لوضع برامج تقسيم الدولة العثمانية، كما يقول "دوجفار" الوزير الروماني في كتابه: ((مائة مشروع لتقسيم تركيا)) وأعدوا ما يناهز مائة برنامج لذلك .

ومما يميز البنية الاجتماعية للدولة العثمانية، أنها عبارة عن مشج من عناصر وشعوب مختلفة، ففي قسمها الأوربي تضم اليونان والبلقان والمجر والجرمان والسلاف والعرب والرومانيين والألبان والأرناؤوط، وفي قسمها العربي الإسلامي، كانت تضم: التتار والعرب والأكراد والتركماني والأرمن والموارنة والكلدان والفرس العثمانيين والبربر وبعض هذه الشعوب تدين الإسلام وبعضها تدين بالمسيحية .

وآفة السلطة العثمانية أنها عجزت عن تذويب هذه الشعوب في جسم الدولة الكبرى فظلت هذه الأمم محافظة على قوميتها فاستغلت الفئات المسيحية هذا المشرب بعد أن تكتلوا في ظل الإفراط في التسامح الديني وإعطاء السلطة العثمانية الحرية المذهبية والمدرسية التامتين لتلك الفئات المسيحية، بواسطة هذين الامتيازين أو هاتين الحريتين كانت تشكيلاتها الفاعلة تبث دعايتها القومية، كما يشير إلى ذلك المؤرخان الفرنسيان ((لامانس ورامبو)) . أن محمد الفاتح كان أكثر سلاطين الأتراك والمغول بعدا عن كل اضطهاد ديني، فكانت حكومة الترك لا تعارض واحدا في دينه، وكان الأتراك لا يحسون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية .

فنشطت حركة سياسية تستهدف القضاء على القوة المادية للعالم الإسلامي ونشطت إلى جوار ذلك حركة فكرية ثقافية إزاء بنية اجتماعية مهترئة تستهدف تمزيق وحدة الدولة الإسلامية حتى يحال في حسم شديد دون استئناف مقدرته في مجال الصناعة والتكتيك، وللقضاء على مقدمات فكره التي تعطيه القدرة على المقاومة وتدفعه إلى الوحدة . وذلك بالعمل على إثارة الشبهات حول تاريخه ولغته ودينه ومفاهيمه، وتسليط نزعة مادية وإباحية ((نيتشرية)) . على شبابه وأجياله الجديدة حتى يحال بينها وبين العوامل الإيجابية القادرة على مقاومته وهزيمته، وذلك

(1) مندر معاليقي: الاستشراق في الميزان . ط1 . المكتب الإسلامي، بيروت . 1997م . ص: 22 .

بالقضاء على قواه الروحية والجسدية بالتحلل والترف والتمزق، وكانت هذه الحرب موجهة أساسا إلى مفاهيم الإسلام باعتبارها أبرز عوامل القوة في بناء العالم الإسلامي السياسي والاجتماعي. فكان لهذا الزخم الفكري والنتاج العلمي لرجال الفكر الغربيين أثر في توزيع الثقافة الإسلامية في اللغات: الفارسية والتركية والعربية، بعد أن كتب الفارسي والتركي بالعربية، في زمن التقارب وهذا التمزق الثقافي الفكري، اللغوي فتح بابا واسعا لدخول فكر ضحل يحمل في ثناياه عقابيل الوثنية والطقوس المنحرفة فغلبت على الثقافة الإسلامية وسلوكاتها الروحية والفكرية مسحات أبرزها مسحة صوفية مخالفة لمقومات الفكر الإسلامي العربي اللغة، العقديّة والروحية والتشريعية.

والقمنين بالذكر أن الذي حمل قوى الغرب السياسية والفكرية على ذلك، هو شعورهم بالخوف من الأتراك حين داهموا عالم الغرب بعد قيام السلطنة العثمانية وقاموا بالإطاحة بالإمبراطورية البيزنطية الرومانية، واحتلال القسطنطينية، فكان طبيعيا أن يرافق ذلك الخوف حقد على الإسلام الذي رفع الأتراك إلى منزلة رفيعة وأمدهم بقوة خارقة مكنتهم من تحقيق منجزات سياسية وعسكرية رائعة، وأخذوا في مهاجمة الرسالة ظنا منهم بذلك أنهم يتجهمون على الأتراك الذين أوقعوا بهم الذل، ثم كانت بعد ذلك المحاولات المختلفة التي قام بها الغرب لاستعمار أجزاء من الوطن الإسلامي، الأمر الذي زاد في اهتمام الغرب بالشرق ((العالم الإسلامي))، وغدت مبررات هذا الاتهام سياسية واقتصادية إلى جانب المبررات العقائدية، ونستطيع القول بكل تأكيد أنه خلال جميع مراحل العمليات الاستعمارية، لعب المستشرقون دورا أساسيا في التمهيد للتوسع الاستعماري ولتوطيد سيطرة الغرب على كثير من أطراف العالم الإسلامي، إن لم نقل العالم الإسلامي بكامله.

ف نجد أنه بعدما أصاب زهرة الإسلام الذبول أيام الخلافة العثمانية نتيجة العوامل التي أشرنا إليها، ولم تلبث الدولة أن أصابها الضعف وتطرق إليها الوهن، فضعفت قبضتها منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وتكالبت عليها الدول الأوروبية الاستعمارية نجد في هذه الظروف . أي في القرن المذكور- أنشئ كرسيان جديدان للغة العربية في جامعة أوكسفورد وكمبرج، ثم اختتم هذا القرن بحملة نابليون على مصر وبلاد الشام التي صحبها عدد كبير من العلماء كان أغلبهم من المستشرقين، في القرن التاسع عشر تخرجت الدفعات الأولى من مدرسة ((دي ساس)) الفرنسية، وتم إنشاء كراسي للغة العربية في كثير من جامعات أوروبا، وتأسيس الجمعيات الآسيوية وإصدار مجلاتها وإتاحة الفرصة لمعظم المستشرقين لزيارة بلاد العالم الإسلامي وخاصة في

الشرق، فتوافدوا عليه من مختلف الجامعات والبلدان الأوروبية وتبعهم عدد كبير من الرحالة على نحو ما ذكر الأستاذ علي جريشة في كتابه: "أساليب الغزو الفكري".



## العلاقة الجدلية بين الاستشراق والاستعمار

منذ أواخر القرن العاشر الميلادي حتى الآن تعرض العالم العربي لهجمات الغرب المتواصلة التي استهدفت احتلال أراضيه، واستغلالها مقدراته واستعباد شعوبه وقد كانت البداية تلك الحروب الصليبية التي أخذت من الدين ستارا لأعمالها الهدامة وعندما خرجت قواها المتكلمة مقهورة قامت متأثرة بما رأت في الشرق الإسلامي وأخذت عنه مقاومة النهضة العلمية الحديثة وشرعت تستعد لهجمات جديدة وأبعد خطرا وأشد ضررا من حرب الحديد والنار إنها حرب شعارها (مدرسة أو مستشفى أو ملجأ أو كتاب أو مقال أو ما إلى ذلك من خداع العناوين التي يقطر باطنها بالسم الناقع واستعدادا لذلك كان لا بد من أن تجول طلائع الغرب في البلاد التي يجب قهرها واحتلالها وأن تكون هذه الطلائع من الذين تعلموا اللغة العربية وغيرها من لغات الشرق لكي يستطيعوا التحدث إلى الشعوب والبحث في الآثار والتعرف على الأفكار والقيام بالدعايات وإثارة المنازعات واستئصال الخلافات حتى تقع البلاد فريسة بين مخالف الاستعمار ولتحقيق هذا الهدف أكثروا من هذه الطلائع ليمارسوا التجسس على البلاد والتعرف على أحوالها وكتابة التقارير عنها وكان لا بد للجاسوس أن يلبس ثوب العالم بلغة البلاد وأن يصطنع البحث العلمي وأن يسعى لخلق صلة بين الأهالي وجيوش الاستعمار إذ أدخلتها لقد كان الاستشراق يعد أبناء وطنه لسحق الإسلام والمسلمين ويصور العالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة بصورة قبيحة في أخلاق وعاداته وآرائه\_ كما أشرنا سابقا - ويصور المستشرقون الإسلام في كل صورة منفرة ويلصق به كثيرا من الرذائل والمخازي والجهالات وإذا كان الاستشراق يسبق الاستعمار ليكون ضلائع جيشه وأعي أمنه يصيب أهدافه ويحقق آماله فما عليه ألا أن يبدأ بالتشكيك في قيم الشعوب المغلوبة و السخرية منه و من نبيها عليه الصلاة والسلام: وهدم الإسلام فكربا وحضاريا، وعلى الاستعمار أن يقوم بتنفيذ ذلك الحكم واقعيًا وعمليًا كما كان الاستشراق حريصا على التدريب باحثين ودبلوماسيين ومهنيين يحملون جميعا إيديولوجية الغرب وعقليته اتجاه العالم الإسلامي وحضارته، وعلى الاستعمار أن يتبنى هؤلاء، يساعدهم وينفذ خططهم . واستخدم الاستشراق الكتب والمجلات و المقالات وكراسي التدريس، و المؤتمرات العالمية والمحاضرات العامة وغيرها من الوسائل لخدمة الاستعمار في أغلب الأحيان لا لخدمة العلم والحقيقة، ففي المجال الديني يجب أن يقال: إن الإسلام دين مخترع ملفق، ولهذا الرأي يجب أن يندب له جحفلا من المستشرقين، كما تجب مهاجمة شخصية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ولهذا المسألة ندب لها رهط آخر من المستشرقين، ولتفكيك روابط العرب يجب أن يفهم الناس أن العربية لا تصلح لشيء وأنها لغة قديمة، وأن اللغات الدارجة أنفع منها.

وللإجهاز على الروابط القومية والنظم الاجتماعية الشرقية، يجب أن يعزى كل شعب إلى أصله، لأن العرب لم يكن لهم فضل في ثقافة أو تاريخ، ولإضعاف الروح القومية و الاعتماد على النفس يجب أن يفهم الفرد المسلم أنه غير مؤتمن الجانب وأن تستتبت الروح الانهزامية و الشعور بالدونية في داخله، وأن الاختلاس الاستهلاكي غريزة فيه، وأن الشرق بعيد عنه، وأن بلاده وتربيته لا تؤهلهم إلا للزراعة، وأن عقله غير مكون تكوينا تجاريا، وهذا كله ليحتكروا التجارة والصناعة ، ويتركوا للبلاد المستعمرة العمل الزراعي الشاق الذي لا يدر إلا الخير القليل كما يشير إلى ذلك حسين الهرابي ويحطموا تلك العقلية الفذة التي لقت خلال عشرة قرون دورا فعالا في بناء تاريخ الإنسان وحضارته.

و لاغرو أن تمتزج في الطلائع الأولى العناصر الاستشراقية والعناصر التنصيرية إذ أن التلة الأولى من الذين تلقوا العلم ومختلف المعارف و اللغة العربية و آدابها من الرهبان ومن أجيال الكنيسة ومن نشئة الأديرة فاتخذ هؤلاء من الطعن في الإسلام و المسلمين كفكرة تعدد الزوجات وملك اليمين وحديث لإفك إلى آخره ... وجاء من بعد هؤلاء مستشرقون مستقلون عن حقل التنصير لما من فروق بين المجالين من حيث الأداء العلمي ولم يسلكوا مسلك البحث النزيه المجرد بل كانوا يكيلون الاتهام للإسلام جزافا. فعلى غرار ذلك بدا التكامل بين المؤسسة الاستشراقية ومنابرها والأجهزة الاستعمارية السياسية والعسكرية جليا وقويا، وعليه فمعظم المستشرقين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر حتى القرن العشرين بل إلى يومنا هذا: يعملون في الوزارات الخارجية للدول الاستعمارية مثل المستشرق الفرنسي (( أرنيست رينان )) و المتخصص في الفكر الرشدي كان يعمل مخططا للاستعمار الفرنسي ومستشار الحكومة بالوزارة الخارجية وكان ((أنتوني إيدن )) الذي أسهم في العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956م إسهاما كبيرا، وزيرا للخارجية البريطانية قبل أن يصبح رئيسا لوزراء إنجلترا، لم يكن هذا الأخير يتخذ قرارا سياسيا يتصل بالعالم الإسلامي إلا بعد الرجوع إلى المستشرقين من أساتذة. جامعة أكسفورد وكلية العلوم الشرقية وعلى الأخص المستشرق "مرجليوث".

ولذلك كله ((تلقف الاستعمار هذه الحركة وكان ملوك الدول الاستعمارية رعاتها وكان قناصلهم في بلدان المشرق عمالها)). ولما كانت الحملة المسعورة ضد الإسلام والمسلمين، فألفت مئات من الكتب لإشباع هذه الأيديولوجية العدائية التي سيطرت على الدوائر السياسية والجماهيرية في الغرب بأسره ومن بين مئات الكتب التي ألفت ضد التعاليم الإسلامية العقديّة والتشريعية والتاريخية في الحقبة الأولى، نذكر مجموعة منها على سبيل التذليل لا على سبيل الحصر، تعتبر دعامة أساسية لسياسة الاستعمار وفلسفتها:



- 1 . كتاب ((ميزان الحق)) الذي ألفه الدكتور "فاندر" المستشرق الأمريكي بالتعاون مع الدكتور "سنكلير تسدل" وهو من أخطر الكتب التي ألفت في هذا الميدان على الإطلاق إذ ملأه بأباطيل وأكاذيب من نسج الخيال والتلفيق.
  - 2 . كتاب (( الهداية )) الذي يقع في أربعة أجزاء، ويعد من أخطر المحاولات في مجال تنفيذ حقيقة الإسلام ودحض أحكام القرآن والطعن فيها.
  - 3 . كتاب ((مقالة في الإسلام)) الذي ألفه المستشرق "سال" وحاول فيه دراسة افسلام والقرآن حسب منهجه الخاص وإملاءات هواه اللامنطقي.
  - 4 . كتاب (( مصادر الإسلام )) الذي ألفه " سنكليرتسدل " حيث حاول تنفيذ الوحي الإلهي ونقد حقيقة نزول القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام.
- ويؤكد الدكتور إبراهيم أحمد خليل: أن (( هذه الكتب الأربعة تعتبر من أخطر المراجع للهجوم على افسلام والقرآن الكريم والرسول الأمين)) (3)، منذ زمن مبكر.



## مقاربات جدلية بين الاستشراق والحراك الدياني لدى الغرب [التنصير واليهودية]

**تمهيد:**

الاستشراق ظاهرة شملت شتى فروع المعرفة الإسلامية، وشمولها هذا أتضح مؤخراً بعد أن تخطى الاستشراق مجرد كيل الاتهامات على الكتاب السنة والتراث العربي. وبسبب من شمولية الدراسات الاستشراقية في الآونة الأخيرة يستبعد الناهلون من الإنتاج الفكري للاستشراق أن تكون هناك علاقة بين هذه الظاهرة وبين ظواهر أخرى تختلف مع الاستشراق في الطريقة والوسائل، ويقف البعض موقف المتحفظ عندما تكون هناك إشارة لقيام رابطة بين الاستشراق والاستعمار أو التنصير أو اليهودية/الصهيونية. ومجيء المستشرقين من دول كان لمعظمها صولات وجولات مع الاستعمار في البلاد العربية والإسلامية<sup>(1)</sup>، ومجيء المستشرقين من دول تدين بالنصرانية كخلفية دينية لم تستطع التخلص منها وإن فضلت أن تظهر للآخرين بالمظهر العلماني، ومجيء المستشرقين من مجتمعات نشأ فيها اليهود وكان لهم تأثيرهم على هذه المجتمعات سلباً أو إيجاباً، كل هذا لا يبرر قيام رابطة قوية أو علاقة متينة بين هذه الخلفيات والأحداث، وظاهرة الاستشراق، إذ أن الاستشراق في مجمله كان مجرداً من هذه الخلفيات والأحداث على اعتبار أن الاستشراق منهج علمي يدرس ظواهر علمية خلفها سلف الأمة الإسلامية ويحاول الخلف أن يكونوا امتداداً لأولئك السلف. هكذا يرى البعض الاستشراق إلى الدرجة التي جعلت بعضهم (يتبنى) آراء المستشرقين في الكتاب والسنة والتراث العربي الإسلامي، مصراً على أنه لا يخرج بهذا عن الخط الإسلامي وإن قال في كتاب الله وسنة نبيه - عليه السلام - ما يصل بالمرء إلى الخروج من الملة.

والطيب في الأمر أن هؤلاء المنبهين قلة. وهم يتقلصون مع ارتفاع نسبة الوعي الثقافي والفكري بين العرب والمسلمين، وإدراك الكثير من المفكرين أن الهروب من الدين لم يعن الأمة على الوقوف على أقدامها بقدر ما أعانها على التعثر أكثر مما تعثرت من قبل. فبحث المفكرون مرة أخرى في أسباب انحطاط المسلمين وما خسره العالم من هذا الانحطاط، فلم يكن هناك بد من الوقوف على إسهامات المستشرقين مجملة وكونها أثراً من آثار هذا الانحطاط عندما تبين أن هؤلاء المستشرقين - في مجملهم - كانوا عوناً على الحملات الاستعمارية على البلاد العربية والإسلامية، و(قاعدة المعلومات) لحملات التنصير التي لا تزال تجتاح المجتمع العربي

(1) سبقت مناقشة علاقة الاستشراق بالاستعمار. أنظر: علي بن إبراهيم النملة. (العلاقة بين الاستشراق والاستعمار). التوباد.

مج. ع 4 (شوال 1408 هـ يونيو 1988 م). ص 38 - 42.

والإسلامي، وتبين لهؤلاء أن قسماً من المستشرقين - كانوا منصرين، كما تبين لهؤلاء أن الاستشراق مهد بطريق مباشر لقيام وطن قومي لليهود في فلسطين وأن الاستشراق لا يزال يسعى إلى تسهيل مسألة قبول قيام الوطن القومي لليهود في فلسطين بين المفكرين الغربيين والمفكرين العرب على حد سواء.

ولا يكفي أن يقال أن هناك علاقة ضعيفة أو قوية بين التيارات المعادية للإسلام دون اللجوء إلى إقناع بوجود هذه العلاقة مع شيء وافر من التجرد الذي تفتقر له التيارات. والتجرد ديدنا لا نستطيع الخروج عنه مغليين جوانب أخرى كالعاطفة مثلاً وإلا خالفنا نصاً منهجياً من نصوص القرآن الكريم. وفي التجرد عدل نحن مطالبون به حتى مع أولئك الذين لم يراعوا فينا هذه الجوانب التي تسمو بالإنسان وترتفع به إلى درجات الكمال الإنساني، قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ الآية (8) من سورة المائدة.

ومع هذا فإن محاولات إيجاد علاقة بين هذه التيارات المعادية للإسلام لم تخل في مجملها - وليس كلها - من تغليب العاطفة في مواقف يمكن حصرها. ولأن هذه المحاولات مكتوبة قابلة للمراجعة فينتظر منها أن تعالج هذا الجانب الذي يمكن أن يفهمه ويقدره المتلقي لو كان التلقي مشافهة وارتجالاً. وعلى أي حال فإن تغليب جانب العاطفة ليس سمة يمكن تعميمها على جميع الأعمال التي سعت إلى تأكيد هذه العلاقة.

على أن الأعمال العلمية التي سعت إلى تأكيد العلاقة بين التيارات المعادية للإسلام والتي لم تقتصر على هذه التيارات الأربعة (الاستشراق والتنصير، والاستعمار، والصهيونية) لم تعالج هذه القضية بتوسع لأنها كانت ضمن أعمال عامة في مجال الاستشراق بخاصة. عدا بحث في العلاقة بين الاستشراق والتنصير نشر في (أخبار العالم الإسلامي) في حلقات، لعله يجمع ويصدر في كتيب واحد تعميماً للفائدة وقد ورد ذكره في هذه المحاولة لتأكيد العلاقة بين الاستشراق والتنصير.

ولا يزال موضوع العلاقة بحاجة إلى مزيد من البحث والغوص في حياة المستشرقين العلمية - وربما أنشطتهم الأخرى، يستشف منها الباحث دلالات مقنعة لقوة العلاقة ناهيك عن تحققها، ولا يبدو أننا - هنا - بحاجة قوية لتحقيق وجود العلاقة. ولكن الحاجة قائمة لتأكيد مدى القوة في العلاقة بين مجموع هذه التيارات المعادية. وربما بحثت العلاقة بين الاستشراق وبعض التيارات الأخرى التي خرجت عن الملة وهي لا تزال تدعي أنها من الإسلام.

وعلى أي حال فظاهرة الاستشراق<sup>(1)</sup> تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث تسير غورها وتبتعد عن التكرار وتتخصص في جوانب ضيقة من هذه الظاهرة. ولعل الأقسام العلمية في الجامعات الإسلامية والعربية تسهم في مثل هذه الطريقة في البحث وتكتشف من اهتمامها بهذه الظاهرة، على اعتبار أنها الظاهرة الوحيدة من بين الظواهر الأخرى التي ادعت العلمية والمنهجية، وسعت بهذا اللباس إلى تحقيق أهداف استعمارية وتنصيرية واقتصادية وعقدية وفكرية، كلها تتعارض مع الخط الإسلامي على أخف الأحكام.

ولعل مراكز البحوث المهمة بالدراسات الإسلامية تسهم في هذا المجال فتوفر المادة العلمية للباحثين وتعينهم على الدراسات وتعدّد المؤتمرات والندوات التي تُقوّم جهود المستشرقين وإسهاماتهم في خدمة التيارات الأخرى، وعقد الموازنة بين خدمتهم للإسلام والتراث وجهودهم في خدمة التيارات. وكان الله في عون الجميع.

### 1 - الاستشراق في خدمة التنصير:

يقيم الإسلام حواجز ضخمة أمام المسيحية في كل مكان حل فيه دعائه وعلماؤه. وقد أظهر واقع الأحداث التي عاشها المنصرون خطأ ما ذهب إليه القدماء من أن الإسلام يعتبر بالنسبة للشعوب البدائية خطوة أولى ممهدة لاعتناق المسيحية. فاعتناق الإسلام يقود الإنسان إلى الإيمان بوحداية لها من القوة على النفوس يمكنها من تحصينها ضد الدخول في المسيحية بعد أن صار المرء مسلماً<sup>(2)</sup>.

والحديث عن نشأة الاستشراق ودوافع الاستشراق وأهدافه قد أبانت عن قيام علاقة قوية بين الاستشراق والتنصير. والتنصير كان دافعاً وهدفاً من جملة الدوافع والأهداف الدينية للاستشراق. وعشرون من تسعة وعشرين من طلائع المستشرقين كانوا منصرين أو رهباناً أو عاملين في الأديرة<sup>(3)</sup>. بل إن أول المستشرقين في نظر ((العقيقي)) وهو (جربرت دي أوراليك 938 - 1003) كان من الرهبانية البندكتية. ومع أن الاستشراق قد بدأ عليه التحرر من سيطرة المنصرين ونفوذهم إلا أن فكرة التنصير لا تزال عالقة في أذهان المستشرقين<sup>(4)</sup>، على اعتبار أنها

(1) لقد ناقشت مجموعة من الأعمال العلمية التي تحدثت عن الاستشراق أهداف وأغراض هذه الظاهرة وتكاد تجمع على أن الهدف الأول هو الهدف الديني الذي يتضمن التنصير فأقيمت العلاقة بين التنصير والاستشراق من هذا المنطلق. (أنظر محمود حمدي زقزوق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر، 1404هـ - ص 27 - 31. (سلسلة كتاب الأمة/5).

(2) محمد شامة، الإسلام في الفكر الأوربي، القاهرة: مكتبة وهبة، 1400هـ/1980م، ص 222.

(3) نجيب العقيقي. المستشرقون. 3 أجزاء. القاهرة: دار المعارف، (1980م). 110/1 - 125.

(4) بركات عبدالفتاح دويدار. الحركة الفكرية ضد الإسلام. مكة المكرمة: المركز العالمي للتعليم الإسلامي، جامعة أم القرى، 1406هـ. ص 101.

كانت هي المنطلق الأول لهذا الاتجاه الفكري. وانشغال المستشرقين بالرهينة قد لا يوحي للبعض انشغالهم بالضرورة بالتنصير. وقد يصدق هذا على غير المستشرقين من المنشغلين بالرهينة والأديرة والكنائس، ولكنه يبعد أن يصدق على مستشرق وجه جهوده العلمية إلى مواقع للتنصير فيها مطامع قديمة متجددة.

ويفرد (نجيب العقيقي)<sup>(1)</sup>، فصلاً كاملاً عن المستشرقين الرهبان وهم موزعون على النحو التالي:

- الرهبان البندكتيون. - الرهبان الكرمليون. - الرهبان اليسوعيون.
- الرهبان الفرنسيسكان. - الرهبان الدومنيكيون.
- الرهبان الكيوشيون. - الرهبان البيض.

وقد أوصل عدد المستشرقين الرهبان إلى مائة واثنين وثلاثين (132) مستشرقاً راهباً، 75% منهم عاشوا في القرن العشرين.

أما الفصل الخامس عشر من الجزء نفسه فقد خصصه المؤلف للمستشرقين اللبنانيين، وركز فيه على المدرسة المارونية، وأوصل عدد مستشرقها إلى ثمانية وثلاثين مستشرقاً مارونياً جعل نفسه آخرهم. وأكثر من 25% منهم عاشوا في القرن العشرين.

وإذا كنا قد وصلنا إلى أن الاستشراق في نشأته قد انطلق من الأندلس وعلى يد تلامذة المسلمين من النصارى فإن التنصير قد انطلق أصلاً مع الحروب الصليبية<sup>(2)</sup>، بشكل أوضح من وفد نجران الذي قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام<sup>(3)</sup>. فلا يبدو أن وفد نجران كان يسعى إلى تنصير محمد عليه السلام. ويمكن أن يعد خطوة أولى في تحدي الإسلام بالنصرانية.

ويأتي الاستشراق (ليصقل) التنصير ويكون له مركز المعلومات الذي يمدده بما يحتاج إليه قبل أن يقدم على مجرد التخطيط (وصاموئيل زويمر 1867 - 1952م) وهو مستشرق منصر في آن واحد يصدر دورية كاملة يستعين بها المنصرون على أداء مهماتهم في العالم الإسلامي الذي بدت عليه الاستحالة في التحول إلى النصرانية، فيعلنها ((زويمر)) نفسه أنه ليس الغرض من حملات التنصير في العالم الإسلامي أن يتحول المسلمون إلى نصارى، فقد أثبتت التجارب

(1) نجيب العقيقي: المستشرقون. 3/249 - 316.

(2) انطلاقة التنصير مع الحروب الصليبية يقصد بها - هنا - ما يتعلق بالتنصير من حيث كونه موجهاً إلى الإسلام وإلا فالتنصير قديم في انطلاقه. واتضح في جوف آسيا والجزيرة العربية في أواخر القرن الخامس الميلادي. (أنظر إسماعيل مظهر. تاريخ تطور الفكر العربي بالترجمة والنقل عن الثقافة اليونانية المقتطف. مج 66. ع 2. (2/1925م) ص: 1425.

(3) نذير حمدان. في الغزو الفكري: المفهوم، الوسائل، المحاولات. الطائف: مكتبة الصديق، (د.ت) ص 101. حيث يذكر أن بدايات التنصير كانت مع وفد نجران وكتب الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى النصارى.

استحالة هذا، ولكن مهمة التنصير في هذا القسم من العالم هو التحول عن الإسلام وكفى<sup>(1)</sup>. وقد صرح بهذا في مؤتمر القدس التنصيري المنعقد عام 1935م.

كما يأتي المستشرقون ليصبحوا جنود المسيحية الشمالية ((الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر، ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في حياة بدأت تموج بالحركة والغنى والصيت الذائع، وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختفية وراء أكداس من الكتب مكتوبة بلسان غير لسان أمهم التي ينتمون إليها، وفي قلوبهم كل اللهب الممض الذي في قلب أوروبا، والذي أحدثته فجيرة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام، ولكن لاهم لهم ليلاً ولا نهاراً إلا حيازة كنوز علم دار الإسلام بكل سبيل، تتوهج افئدتهم ناراً أعتى من كل ما في قلوب رهبان الكنيسة، ولكنهم كانوا يملكون من القدرة الخارقة أن يخالطوا أهل الإسلام في ديارهم، وعلى وجوههم سيمياء البراءة واللين والتواضع وسلامة الطويلة والبشر. وبفضل هؤلاء المتبتلين المنقطعين عن زخرف الحياة الجديدة، وبفضلهم وحدهم بفضل ملاحظاتهم التي جمعوها من السياحة في دار الإسلام ومن الكتب، وبذلوها لملوك المسيحية الشمالية نشأت طبقة الساسة الذين يعدون ما استطاعوا من عدة لرد غائلة الإسلام ثم قهره في عقر داره، ولتحقيق الأحلام والأشواق التي كانت تخامر قلب كل أوروبي أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام. وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم رجال (الاستعمار). وبفضلهم وحدهم أيضاً، وبفضل ملاحظاتهم التي زدودوا بها رهبان الكنيسة ثارت حمية الرهبان ونشأت الطائفة التي تدرت نفسها للجهاد في سبيل المسيحية، وللدخول في قالب العالم الإسلامي لكي تحول من تستطيع تحويله عن دينه إلى الملة المسيحية، وأن ينتهي الأمر إلى قهر الإسلام في عقر داره - هكذا ظنوا يومئذ - وهذه الطائفة هي التي عرفت فيما بعد باسم رجال (التبشير). فهذه ثلاثة متعاونة متآزره متظاهرة، وجميعهم يد واحدة لأنهم أخوة أعيان، أبوهم واحد، وأمهم واحدة، ودينهم واحد، وأهدافهم واحدة ووسائلهم واحدة<sup>(2)</sup>.

وبصعب جداً أن تقوم حركة التنصير في بيئة ما دون معرفة هذه البيئة معرفة شاملة. ثقافية ودينية وتاريخية وجغرافية واجتماعية. وتتأتى هذه المعرفة عن طريق الاستشراق حتى أن أحد الكاتبين أراد أن يقسم التنصير إلى نوعين، التنصير الصريح والتنصير المختفي. والتنصير

(1) علال الفاسي. ((التبشير أسلحة أخطر الاستعمار)) الهلال مج 81. ع1 (أكتوبر 1973م/ رمضان 1393هـ). ص 60 - 70.

(2) محمود محمد شاكر. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. القاهرة: دار الهلال، 1408هـ/ 1987م. (سلسلة كتاب الهلال/ 422) ص 73 - 75.

الصريح يكون علمياً نقاشياً أو سفسطائياً تشكيكياً. ويكون أيضاً بالعنف. فالتنصير العلمي هو ما جاء عن طريق المستشرقين. أما التنصير بالعنف فهو ما جاء عن طريق الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش واختطاف الأطفال ثم الاستعمار.

والتنصير الخفي أو المختفي هو ما يأتي عن طريق الإرساليات الطبية والتعليمية المهنية والفنية والجمعيات الخيرية الاجتماعية وغيرها<sup>(1)</sup>. ويلاحظ أن جزءاً من العالم الإسلامي لا يزال يسمى بالمرضة إلى اليوم (سستر) وهي الأخت في عالم الرهينة، بينما أوروبا وأمريكا لا تسميها إلا بالمرضة. وهناك بعثات تنصيرية توغلت في مجتمعات المسلمين واكتسبت شهرة عالمية وتعاطفاً لم يسلم منه بعض من أبناء المسلمين. مثل بعثة (الأم تيريزا) في الهند التي لم تعلن يوماً أنها جاءت إلى شبه القارة رغبة في بسط تعاليم المسيح، ولكنها تظهر دائماً رغبتها في احتضان المشكلات الصحية والطبية وعلاجها والقضاء على الأوبئة والأمراض المعدية، يعمل معها فريق من الممرضات الهنديات ذوات التأثير الفعال في مجتمعهن. ولا تبرز في عمل ((الأم تيريزا)) العلاقة الواضحة بينها والاستشراق ولا يمكن للمتعاطفين معها أن يربطوا بينها وبين المستشرقين. وإن لم تكن هناك علاقة قوية فلا شك أن منطلقها كان عن طريق هؤلاء المستشرقين الذين أعانوها على التعرف على البيئة التي تعمل بها. وأمثال ((الأم تيريزا)) كثير في آسيا وأفريقيا، تحاول بقدر الإمكان الابتعاد عن الأضواء خشية اللفتات إلى الأغراض الحقيقية لهذه الأعمال (الإنسانية). كما تحاول الابتعاد عن إبراز وجود علاقة بين العلم – الآتي عن طريق المستشرقين – والدين الذي تتبناه بناء على ما شاع من العداوة بين العلم والدين في العقيدة المسيحية المتأخرة. فإذا برزت هذه العلاقة ظهر التناقض وخفت حدة التأثير على المستهدفين. ومن المعلوم أن تهئية المنصرين إنما قامت على أيدي المستشرقين سواء كان هؤلاء المستشرقون من الرهبنة القساوسة أو كانوا بعيدين عن الألقاب الدينية. يقول (محمد عبدالفتاح عليان): "لم يكن عمل المستشرقين منفصلاً عن عمل المبشرين، فالاستشراق في نشأته ما هو إلا أداة من أدوات التبشير – ثم استغل في مرحلة لاحقة – لتحقيق مطامع الدول الاستعمارية. وقد نزل كثير من أساقفة الكنيسة الكاثوليكية إلى ميدان الاستشراق بقصد التبشير وتدريب المبشرين على العمل في بلاد الشرق"<sup>(2)</sup>.

فتعلموا العربية ودرسوا الإسلام واهتموا بالترجمة وأقاموا المطابع العربية.

(1) عثمان الكعاك. (صفحات سوداء من تاريخ المبشرين). . الهلال. مج 81. ع 10. (أكتوبر 1973م / رمضان 1393هـ) ص 38 – 49.

(2) محمد عبدالفتاح عليان. أضواء على الاستشراق. الكويت: دار البحوث العلمية 1400هـ / 1980م. ص 24.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الاستشراق قد ولد من أبوين غير شرعيين هما الاستعمار والتنصير. فالاستشراق لا يزال يعمل من أجل هذا الغرض الذي وجد من أجله، وإنما تتغير الأساليب والطرق والوسائل ملائمة للزمان. ويجد المرء أهداف المنصرين واردة في أعمال المستشرقين التي وجدت رواجاً بين المنصرين في معاهدهم وإرسالياتهم ومؤتمراتهم بل جامعاتهم المقامة في العالم الإسلامي على شكل مناهج ودراسات في مجال الإنسانيات<sup>(1)</sup>.

ولابد من الالتفات إلى المجتمع الغربي نفسه، فالتنصير لم يكن موجهاً إلى آسيا أو أفريقيا فحسب، ولكن أوروبا وأمريكا أيضاً حظيتا بنصيب وافر من حملات التنصير التي أرادت تأكيد قوة الكنيسة خاصة بعد أن بدأت المعلومات عن الإسلام (تتسرب) إلى المجتمعات الأوروبية، وخاصة منها المفاهيم الصحيحة عن الإسلام فاستعان التنصير هنا بالاستشراق في الافتراء والتشنيع على الإسلام وتشويه أحكامه الإلهية العادلة<sup>(2)</sup>، قصداً إلى الحد من انتشار الإسلام في أوروبا نفسها في الوقت الذي تتجه فيه الأنظار إلى تنصير معقل الإسلام. ومعلوم أن الطريق إلى تحقيق غايات التنصير يبدأ قطعاً بتجريد الأمة من انتماءاتها العقدية أولاً، يقول (وليم جيفورد بالكراف): "متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه"<sup>(3)</sup>.

وربط علاقة بين الاستشراق والتنصير على وجه العموم تصطدم بوجود مجموعة من المستشرقين (العلمانيين) واليهود الذين لا يتصور منهم أن يكونوا مدفوعين بخدمة التنصير أو أن تكون من أهدافهم خدمة الكنيسة، فهذه الفئة من المستشرقين تتناقض في منطلقاتها مع الكنيسة. وعليه فلا بد هنا من الاحتراز من خلال الابتعاد عن التعميم الذي قد يفهم عند الحديث عن الروابط بين الاستشراق والتنصير.

ولا بأس في هذا، إلا أنه لا بد من التنويه إلى أمرين أساسيين في محاولة إيجاد علاقة بين الاستشراق والتنصير على وجه العموم:

أولاً - أن العلمانيين من المستشرقين لم يستطيعوا بحال أن يتخلوا عن ميولهم الكنسية خاصة فيما يتعلق بإنتاجهم العلمي حول العالم الإسلامي، وإن كانوا يعلنون رسمياً وفي أكثر من مجال

(1) أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب: مخططات التبشير والاستشراق. القاهرة: دار الاعتصام، (د.ت) ص 266 - 267.

(2) علي جريشة ومحمد شريف الزبيق. أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي. القاهرة: دار الاعتصام، (1978م). ص 20.

(3) أ.ل. شاتليه. الغارة على العالم الإسلامي - لخصها ونقلها إلى اللغة العربية مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب. ط2. جدة: منشورات العصر الحديث، 1387هـ. ص 93 - 94.



أنهم علمانيون يرفضون التقيد بدين معين. فهذا ينطبق على ممارساتهم في حياتهم الخاصة، ويصعب عليهم عملياً تطبيق علمانيتهم على إنتاجهم الفكري.

**ثانياً** - أن التنصير استفاد من المستشرقين اليهود فائدة جليلة وإن تكن فائدة غير مباشرة وترجع هذه الفائدة إلى الارتباط الوثيق بين الصهيونية واليهودية - كما سيأتي بحثه - والارتباط الوثيق بين الصهيونية وكثير من رجال الدين المسيحي. وعليه نشأت العلاقة الوثيقة بين المسيحية واليهودية، وإن لم تبد هذه العلاقة بارزة معلناً عنها. ويكفي أن نعلم أن زعيم المنصرين وهو مستشرق أيضاً - (صموئيل زويمر) كان في الأصل يهودياً، وأنه قد استدعى أحد الحاخامات عند احتضاره. لعله أراد أن يلقنه صلوات اليهودية عند الموت<sup>(1)</sup>.

ولم يكن (زويمر) بدعا في قومه فقد ادعى النصرانية جمع منهم وانخرطوا في الرتب الكهنوتية مكنتهم من فرض آرائهم على الكنيسة وتوجيهها الوجهة التي يريدون. واستطاعوا بمساعدة الجمعيات السرية كالماسونية وغيرها أن يهدموا قوة الكنيسة في أوروبا وأمريكا، وأن يوجهوا ويوجهوا الحكومات إلى المبادئ الصهيونية، ثم اتجهوا إلى الإسلام طمعاً في هدم القوة الروحية فيه وتوجيه أهله إلى المادة. وبذلك يضمون عدم معارضة خططهم الهادفة إلى السيطرة على بلاد المسلمين<sup>(2)</sup>، سيطرة مباشرة أو غير مباشرة. وهذا واضح جلي في مواقف القسس الأوروبيين والأمريكيين من اليهودية ومن الإسلام، وخاصة منهم أولئك الذين يحتلون أماكن مرموقة في الإعلام الأمريكي عن طريق الإذاعة والتلفزيون.

وإن لم يكن المنصرون يهوداً وكان المستشرقون يهوداً فإن المنصرين قد أفادوا كثيراً من نتاج المستشرقين اليهود في مدارسهم وأديرتهم وكنائسهم ومعاهدهم وجامعاتهم. كما استفادوا أيضاً من نتاج المستشرقين العلمانيين الذين استطاعوا أن يبرزوا انفصالهم عن الكنيسة. ولكنهم لم يستطيعوا طرق أبواب الإنصاف والنزاهة، فكانوا أدوات في أيدي حكوماتهم المستعمرة أفادت منهم وأفاد منهم التنصير. فالاستشراق في شطريه (عاملاً مع الكنيسة أو عاملاً مع وزارات الاستعمار لا يستطيع أن يخلص إلى الحق وإنما هو يؤدي دوره في إثارة الشبهات وتقديم الزاد الكافي لدراسات التبشير ومعاهد الإرساليات لخلق ظاهرة من انتقاص العرب والمسلمين وفكرهم وعقائدهم)<sup>(3)</sup>.

(1) عبدالله التل. جذور البلاء ط1. بيروت: المكتب الإسلامي، 1398هـ/1978م. ص228.

(2) أحمد الزغبى. الفكر الصهيوني وأهدافه في المجتمع الإسلامي. بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الثقافة الإسلامية. قسم الثقافة الإسلامية، كلية الشريعة بالرياض. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. 3 مجلدات. 1405هـ/1985م. 1046/3.

(3) أنور الجندي: شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، دمشق: المكتب الإسلامي، 1398هـ/1978م، ص91.

ولأن الاستشراق يعمل ك(قاعدة معلومات) للتنصير كان لابد أن تكون هناك فروق في المنطلقات بين الاستشراق والتنصير وإن اتفقت الغايات العليا لهاتين الوجهتين: فالمنصر (داعية) للدين النصراني المسيحي، أو هو داعية لخروج المسلم عن دينه فحسب، أما المستشرق فهو باحث في تراث المسلمين وقيمهم ومفاهيمهم وأخلاقياتهم يبتث نتائج في دراساته وبحوثه وكتبه ومحاضراته كل هذا عن طريق المنهج العلمي.

والمنصر منطلق رحالة يجوب البلاد قراها ومدنها ويريفها يعظ ويعالج أو يعلم أو يدرّب أو يفلح الأرض. أما المستشرق فقابع في مكتبته لا يكاد يبرح بلاده إلا إذا دعت ضرورة البحث إلى (رحلة علمية) يجوب فيها البلاد التي يدرسها أو يقف منها على مكان بعينه.

والمنصر - نسبياً - صريح في دعوته واضح فيها وإن حاول إخفاءها تحت ستار خدمة الإنسانية. ولكنه لا يتردد في أن يعلق الصليب على صدره أو في مكتبته أو عيادته أو معلمه أو مدرسته. وربما أفرد فيها مكاناً أو زاوية للنشريات التي يعمل لها وبها، أما المستشرق فباطني يتظاهر بالعملية والمنهجية والتجرد والموضوعية وإن كان من القساوسة أو الرهبان، ويحاول الوصول إلى أغراضه الباطنة ممتطياً سهوة العلم والتجرد، وكأني به ممتطياً سهوة حصان من خشب مشعراً الآخرين أن هذا الحصان ذو سهيل تطرب له الآذان (وتشغف) له الأسماع، وقد وفق بعضهم - دون شك - في إشعار بعض (الآخرين) بهذا، فانقاد له البعض منهم وتبته له الآخرون فأخذوا منه وردوا وكان ما ردوه عليه أكثر مما أخذوه منه.

والمنصر ينطلق من مؤسسات ومعاهد ومدارس وجامعات ومستشفيات في البلاد التي يعمل بها أو في مركز في قارة يعمل بها. كما يتخذ من بعض عواصم العالم العربي مركزاً له في الانطلاقة إلى أدغال أفريقيا وبعض عواصم الشرق الأقصى في الانطلاقة إلى جبال وسهول آسيا. ولا يكاد يحل في بلد له فيها شأن إلا ويقيم فيها له مركزاً دائماً على شكل كنيسة أو مدرسة أو عيادة أو نحوها، بينما تكون علاقة المستشرق بالبلاد التي يعمل أعماله فيها مقصورة على زيارة خاطفة يلقي خلالها محاضرة أو يحضر اجتماعاً لمجمع هو عضو فيه أو يلبي دعوة من رئيس جامعة أو مؤسسة علمية قاصداً إلى الاستشارة وإبداء الرأي ولا تربطه بهذه روابط قوية. وقد تنتهي حياته وهو لم يقم بزيارة سريعة لبلاد كثر حولها إنتاجه حتى بات يعرف طرقها ومسالكها وقديمها وحديثها.

ويقول (نذير حمدان) بعد محاولة إيجاد الفروق في الوسائل بين المستشرقين والمنصرين: "ويبدو لي من خلال تتبع تراجم كثيرة للمستشرقين والمنصرين أن الدافع الكنسي (المخطط) نظم فئة قادرة على البحث والفكر فكان (المستشرقون) وجماعة قادرة على الأسلوب

الدعوي الإعلامي فكان (المنصرون)، ثم التحمت الفئتان والجماعتان وكونت (الاستشراق التنصيري)<sup>(1)</sup>. ويبدو الاستشراق التنصيري واضحاً عندما تبرز فكرة أن الكثيرين ممن احترقوا الاستشراق وبرزوا فيه ((بدأوا حياتهم العلمية بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية، وكأنهم أرادوا أن يتسلحوا بمعرفة كافية بالعقيدة المسيحية قبل الخوض في غمار الحرب المبطنة التي أرادوا شنها على الإسلام. وظل الكثير منهم يتولى وظائف دينية وتبشيرية، وله مكانة كنسية مرموقة، ورغم محاولات بعضهم نفي هذه التهم والإعلان عن حيادهم وأنهم إنما يقصدون من دراساتهم وجه العلم والحقيقة فقد لازم التعصب الديني أكثرهم وبدا بين سطور ما يكتبون وإن لم يعلنوا عنه صراحة وجهاراً)<sup>(2)</sup> وقد ينصب الذهن على الاتجاه أن هؤلاء الذين بدأوا حياتهم العملية بدراسة اللاهوت هم جملة من طلائع المستشرقين الذين يتحدث عنهم (نجيب العقيقي)<sup>(3)</sup>. ولا بد من التأكيد هنا إلى أن هذه الظاهرة امتدت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديين. ولعل من أبرز هؤلاء المستشرقين المنصرين (الأب هنري لامانس 1937 – 2862م) و(دنكن بلاك ماكدونالد 1863 – 1943م) و(الأب آسين بلاثيوس 1871 – 1944م) و(شارل دوفوكول) و(وليام مونتغمري وات) معاصر و(سنوك هورخرونه 1857 – 1936م) والملاحظ أن هؤلاء المستشرقين المنصرين موزعين من بلاد أوروبا وأمريكا في الولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا وهولندا<sup>(4)</sup>. ويقدم المستشرق الفرنسي (مكسيم رودنسون مولود عام 1915م)، تبريراً لانشغال المنصرين بالاستشراق/ أو انشغال المستشرقين بالتنصير بقوله: "لقد أدت الوضعية الحقيرة التي وجد العالم الإسلامي نفسه فيها إلى تشجيع المبشرين المسيحيين حيث وجدوا مجالاً واسعاً للعمل وبذلوا مجهودات في اتخاذ موقف الهجوم والتبشير وتضايقوا من العراقيين التي وضعها أمامهم كل من الفقه الإسلامي والإداريين الاستعماريين أنفسهم، حيث خشي هؤلاء من ردود فعل مختلفة لأعمال مكشوفة أكثر من اللازم. وفي نطاق الاتجاهات الإنسانية العادية وبمؤازرة مع الأفكار العامة للعلوم في وقتهم كانوا يربطون نجاح الدول الأوروبية بدينهم المسيحي، كما كانوا يربطون

(1) نذير حمدان. في الغزو الفكري. ص 186 – 188.

(2) نبيه عاقل. ((المستشرقون وبعض قضايا التاريخ العربي الإسلامي)) في محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي. المجلد الثاني. الجزائر في 6/13 – 7/1 – 1392 هـ الموافق 7/24 – 8/10/1972م. نشرته في الجزائر وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية. ص 198.

(3) نجيب العقيقي. المستشرقون 1/110 – 125.

(4) محمد بن عبود. ((الاستشراق والنخبة العربية)) المجلة التاريخية المغربية. مج 9. ع 27 و 28. (1982م). ص 199 –

تقهقر العالم الإسلامي بالإسلام، وهكذا اعتبروا المسيحية مؤيدة بطبيعتها للتطور وبالتالي اعتبروا الإسلام مؤيداً للركود والتأخر الثقافي، فاتخذ الهجوم على الإسلام أعنف الصفات وشرع المجددون في تزيين الحجج والبراهين الشائعة خلال القرون الوسطى واتخذوا مظاهر تجديدية<sup>(1)</sup>.

ولم يستطع كثير من المستشرقين - على العموم - التجرد من هذه النظرة الفوقية للإسلام ومن الشعور بتفوق المسيحية على الإسلام. وكان لهذا أثره على نظرتهم للإسلام من خلال مرآة مسيحية حيث طبقوا عليه المبادئ المسيحية وأفكارهم المسبقة (فالمسيح) - عليه السلام - في نظر المسيحيين هو أساس العقيدة ولذا تنسب الديانة إليه، والنصرانية شبه مهمة لفظاً ومعنى، وحاول المستشرقون تطبيق ذلك على الإسلام (فمحمد ﷺ) ينبغي أن يكون عند المسلمين كما (المسيح) عند المسيحيين، ولهذا يطلقون على الإسلام المحمدية أو المذهب المحمدي وعلى الشخص المسلم (محمدي)، فيغفل الإسلام لفظاً ومعنى. ويبقى المذهب بشرياً صاغه ذلك المصلح العبقري (محمد) في مكة والمدينة. ويخرج المسيحيون إلى بشرية الإسلام وإلهية المسيحية على اعتبار أن المسيح لديهم هو ابن الله<sup>(2)</sup> - أو ربما عند البعض هو الإله، الذي لم يتزوج ولم يحارب ولم يُقدِّم أمه، بخلاف (محمد ﷺ) المزوج المحارب السياسي القائد رجل الدولة المستفيد من الحضارات والثقافات التي سبقته أو عاصرها، يجمع منها جميعاً مجموعة من الطقوس والأحكام والسلوكيات وحاول أن يظهر منها بدين جديد يسميه الإسلام: فيأخذ من الجاهلية صلاة الجمعة، وصوم عاشوراء، وتطييب البيت الحرام وحظ الذكر في الميراث مثل حظ الأنثيين، والتكبير، والأشهر الحرم، والحج والعمرة، وترف الإبط، وحلق العانة، والوضوء والاعتسال، والختان وتقليم الأظافر.

ويأخذ من الصائبة الصلوات الخمس، والصلاة على الميت، وصيام شهر رمضان، والقبلة، وتعظيم مكة، وتحريم الميتة ولحم الخنزير، وتحريم الزواج من المحارم. ويأخذ من الهندية والفارسية قصة المعراج، والجنة وما فيها من الولدان والحوار العين، والصراط المستقيم.

ويأخذ من اليهودية قصة (قاييل وهابيل) وقصة ((إبراهيم - عليه السلام)) - وقصة ملكة سبأ، وقصة (يوسف الصديق - عليه السلام) -.

(1) نقلاً محمد بن عبود. ((الاستشراق والنخبة العربية)). ص 202.

(2) محمود حمدي زقزوق. الإسلام والاستشراق. القاهرة: مكتبة وهبة، 1404هـ. ص 22.

ويأخذ من النصرانية قصة (أهل الكهف) وقصة (مريم العذراء)، وقصة طفولة (عيسى) - عليه السلام<sup>(1)</sup> - . وليس المقام هنا دحض هذه الشبهات والتصدي لها، فقد قام بهذا علماء مسلمون أجلاء، ولكنها هنا محاولة لإثبات قوة الرابطة بين التنصير والاستشراق وأن الاستشراق عمل على توصية (زويمر) في إخراج المسلمين من دينهم دون النظر إلى إدخالهم في النصرانية من خلال تشويه الإسلام وإضعاف قيمته وتصويره للرأي العام الأوروبي والأمريكي بصورة مزرية بعيدة عن المستوى الحضاري في عصرنا الحاضر<sup>(2)</sup>، ومن خلال معاونة المستشرقين على تثبيت وتأكيد هذه الاتهامات وتوسعهم فيها وتخصص كل فريق منهم في بعضها يروجونها في مؤلفاتهم ودراساتهم مع إدراكهم (أنها لا تعدوا أن تكون دسائس مغرضة وإشاعات ملفقة لمحاربة الإسلام وتشويه مفاهيمه، فالاستشراق والتبشير عدو واحد له هدف واحد يسعى ليدركه وهو تشويه الإسلام ليصل من وراء ذلك إلى تمزيق المسلمين وإشاعة البلبلة في أفكارهم وبين صفوفهم لئلا يلتقوا فيراجعوا من عزتهم ما كان<sup>(3)</sup> ولعل هذا يكون مبرراً واحداً من مجموعة من المبررات التي تفسر بداية الاستشراق وانطلاقه من الكنيسة بإنشاء أول مركز لتعليم اللغة العربية في الفاتيكان لتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين وعلماءهم ومفكريهم. وبرحيل الرهبان إلى المشرق والمغرب الإسلامي لتعلم اللغة العربية وعلوم الإسلام للغاية نفسها<sup>(4)</sup> .

على أن بعض الباحثين في الاستشراق والمستشرقين يحاول من خلال الاستقراء أن يصنفهم حسب قوة اندفاعهم لتحقيق أغراض التنصير فالكاثوليك مثلاً أعتى من غيرهم والفرنسيون أشد تعصباً ضد الإسلام ورسوله. فمن النادر أن نقرأ لمستشرق فرنسي شيئاً طيباً عن حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما يشير إلى ذلك (حسين مؤنس)<sup>(5)</sup>. وهناك من يرى أن المستشرقين الألمان هم أكثر المستشرقين نزاهة لأن دوافع التنصير والاستعمار لم تكن بارزة فيهم، إذ لم تستعمر ألمانيا بلداً مسلماً، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق<sup>(6)</sup>، ومع هذا

(1) إبراهيم خليل أحمد. الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية. القاهرة: مكتبة الوعي العربي، 1393هـ/ 1973م. ص 67 - 68.

(2) مصطفى خالد وعمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية: عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي. صيدا: منشورات المكتبة العصرية، 1982م. ص 46.

(3) أحمد سمايلوفتش. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. القاهرة: دار المعارف، (1980م). ص 127.

(4) أحمد عبدالرحيم السايح. (العلاقة بين الاستشراق والتنصير) (أخبار العالم الإسلامي). مج 23 ع. 11 (وما بعده) 14 رجب، 1409هـ الموافق 20 فبراير 1989م). انظر العدد 1112، ص 10 و 14.

(5) محمد أحمد مشهور الحداد. (الاستشراق والمستشرقون). أخبار العالم الإسلامي. مج 23. ع 1074، ص 10.

(6) صلاح الدين المنجد. (الاستشراق الألماني في ماضيه ومستقبله) الهلال مج 82 ع 11، ص 22 - 27 (شوال 1394هـ/ نوفمبر 1974م)، ص 22 - 27.

لم يخل الاستشراق الألماني من آراء خاطئة تماماً أو (لا توافق العرب والمسلمين) أو نقص أو غلط ولكنها - في رأي (صلاح الدين المنجد) غير قابلة للتعميم<sup>(1)</sup>. ولم نتعود التعميم في إصدار الأحكام العلمية الموضوعية المجردة. ويسعى المنصفون من المحللين لحركتي الاستشراق والتنصير إلى عزل فئة من المستشرقين عن هذه العلاقة الحميمة في الوقت الذي يقررون فيه وقوع المستشرقين في أخطاء مقصودة أو غير مقصودة أفاد منها التنصير. يقول (محمد حسين علي الصغير): "إننا لا نستطيع أن ننفي هذه التهم جملة وتفصيلاً - (التهم التنصيرية) - فلهذه أصل من الصحة، ولا يمكننا أن نزيّف جميع الجهود الاستشراقية ونصمها بالتبشير، ففي هذا بعض الغلو والتطرف، ولكننا نستطيع أن ننزه قسماً ونتهم قسماً آخر، فالمستشرقون بشر، والبشر فيه الموضوعي وفيه السطحي، والمستشرقون مجتهدون، وقد يخطئ المجتهد وقد يصيب"<sup>(2)</sup>.

أما صفتهم بالبشرية فواردة. وأما وصفهم بالاجتهاد فأمر يحتاج إلى نظر، وليس من الإنصاف للمستشرقين أن نرقى بهم إلى هذه الدرجات، ومع هذا فعلينا ألا نغفل العلاقة القوية بين الاستشراق والتنصير والصلة الوثيقة بينهما وأن تاريخ التنصير مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الاستشراق، وهما لا ينفصلان عن تاريخ الاستعمار السياسي والفكري والأخلاقي<sup>(3)</sup>. وأن الآراء الاستشراقية كانت ولا تزال (تنشر في المؤسسات التي أنشأها التبشير كالمستشفى، والمدرسة والجامعة، والمخيم، والنوادي الاجتماعية، وكذلك كانت الآراء الاستشراقية تنشر في أكبر وسيلة عبر الكلمة المكتوبة من كتب ودوريات ومجلات، ومحاضرات وندوات، ومؤتمرات)<sup>(4)</sup>.

ولا بأس من أن نختم هذه الجولة في تثبيت العلاقة بين الاستشراق والتنصير بعبارة أوردها (قاسم السامرائي) (لصموئيل زويمر) مع الإحجام عن التعليق يقول (زويمر): "إن من جملة المطالب في الجزيرة العربية بل وأولها: الحق التاريخي، لأننا نعرف أن أصقاعاً واسعة في الشرق الأدنى كانت نصرانية، والآن إسلامية، وأن المطالبة بشمال أفريقيا وسوريا وإيران وفلسطين والجزيرة العربية وآسيا الوسطى حق للنصرانية في استعادتها... يجب أن نعيد كسب الجزيرة العربية لدين

(1) صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية. ط2. ط1. بيروت: دار الكتاب الجديد، 1982م. ص 7 - 13.

(2) محمد حسين علي الصغير. المستشرقون والدراسات القرآنية. ط2. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1406هـ/ 1986م. ص 16.

(3) قاسم السامرائي. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. الرياض: دار الرفاعي، 1403هـ. ص 51.

(4) عدنان محمد وزان. الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر. مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، 1404هـ/ 1984م. ص 61. (سلسلة دعوة الحق/ 24).

المسيح من أجل كرامة الكنيسة، من أجل كرامة اسم المسيح ومن أجل شهداء نجران الذين ذكرهم القرآن.. إن الجزيرة العربية هي مهد الإسلام.. وإن المحمديين في حاجة إلى بشارة الإنجيل بنفس الحاجة التي يحتاجها الآخرون (من غير النصاري). إن الإسلام ليس هرطقة نصرانية، بل إنه كذلك ليس ديناً غير نصراني - إن الإسلام عدو للنصرانية في أصولها وأخلاقها وتاريخها وحياتها"<sup>(1)</sup>.

## 2 - الاستشراق في خدمة اليهودية:

إذا كان المستشرقون بمجملهم قد عملوا على تحقيق أهداف عدة على رأسها الأهداف الدينية ثم الاستعمارية والسياسية والتجارية والعلمية مدفوعين بدوافع مشابهة، فإن هذه الأهداف - عدا العملية - إلى اليهود ألصق منها بغيرهم من المستشرقين، رغم ما تركته الحروب الصليبية من إصرار للمسيحيين على العودة إلى الديار المقدسة بأي شكل من أشكال العودة. واليهود أكثر إصراراً على العودة بعد أن أجلاهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من الجزيرة العربية عندما أدرك (أن الدولة الإسلامية لا يمكن أن ترسخ في شبه جزيرة العرب ما دام اليهود يثيرون أهلها على الدولة ويفقرونها بالربا الفاحش)<sup>(2)</sup>، ولسنا هنا بصدد التوسع في سرد تاريخ اليهود وعلاقتهم بالمسلمين منذ البعثة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - ولكن يكفي أن نقرر هنا أن دخول اليهود مضمار الاستشراق إنما تدفعه بواعث عرقية قديمة لم تكن وليدة القرون المتأخرة، وأن اليهود يتطلعون إلى العودة إلى (خيبر) و(المدينة المنورة) عن طريق (القدس) و(الجليل). فعندما سقطت (القدس) في أيدي اليهود سنة 1387هـ/ 1967م دخلها وزير الدفاع - آنذاك - (موشي دايان) مع الحاخام الأكبر (شلوموغورين)، وبعد أن أدى صلاة الشكر عند حائط البراق الشريف قال: (اليوم فتحت الطريق إلى بابل ويثرب) وتقول رئيسة الوزراء السابقة (غولدا ماير) وفي (إيلات): (إني أشم رائحة أجدادي في خيبر). ويقول (هرتزوغ) لامرأة مسلمة ضيق عليها اليهود الخناق حتى دهموا دارها بالجرفات، فآثرت الرحيل إلى المملكة العربية السعودية حيث أبناءؤها: (إذا رأيت الملك فيصل (رحمه الله) فقول لي: إنا قادمون إليه، فإن لنا أملاً عندك، إن جدنا إبراهيم هو الذي بنى الكعبة إنها ملكنا وسنسترجعها بالتأكيد)<sup>(3)</sup> وهذه أقوال (قادة) يهود يملكون - نوعاً ما - القرار السياسي والعسكري.

(1) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. ص 50 - 51. وانظر أيضاً الأمير شكيب أرسلان. حاضر العالم الإسلامي: 4 أجزاء في مجلدين - ط4. بيروت: دار الفكر، 1394هـ، 1973م - 278/1 - 282.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ. التبشير والاستعمار. ص 180.

(3) إسماعيل الكيلاني. لماذا يزيّفون التاريخ ويعبثون بالحقائق؟! بيروت: المكتب الإسلامي، 1407هـ/ 1987م، ص 31.

ومن هذا المنطلق يسعى اليهود إلى الوصول إلى هذه الأهداف مستخدمين وسائل شتى، من ضمنها الاستشراق بالمفهوم الذي يناقش فيه هنا، ولذا لم تغفل الجامعات اليهودية الدراسات الإسلامية والعربية أقساماً مستقلة فيها، بل هي الآن وبحكم قربها من العالم العربي والإسلامي أكثر تأثيراً من مراكز ومعاهد الدراسات العربية والإسلامية في البلاد الأخرى. وتتاح لها من الظروف والإمكانات ما لا يتاح لتلك المراكز والمعاهد.

وقد حاول المستشرقون اليهود في البدايات الأولى للاستشراق التكنم على انتمائهم اليهودي ونظروا إلى أنفسهم، وأرادوا الآخرين أن ينظروا لهم على أنهم مستشرقون فحسب، وقلّ منهم من صرح بيهوديته.

ويأتي اتجاه اليهود نحو الاستشراق في البدايات فقط إلى الشعور السامي لديهم وأنهم والعرب - منشأ الإسلام - يعودون إلى أصول واحدة، فدرسوا العبرانية في البداية وجرتهم دراسة اليهودية إلى دراسة الإسلام عندما أرادوا أن يبرزوا الأثر اليهودي على الإسلام كما أراد المستشرقون المسيحيون إبراز الأثر المسيحي على الإسلام.

وما الاستشراق اليهودي إلا امتداد لموقف اليهود عموماً من العرب والمسلمين، ذلك الموقف الذي لم يكن وليد القرون المتأخرة، بل صاحب الإسلام منذ أيامه الأولى في المدينة المنورة. ولذا نجد أن جانب الإنصاف والنزاهة بين المستشرقين اليهود يقل كثيراً عنه بين المستشرقين والمسيحيين أو الملحدين من غير اليهود. وهذه ردة فعل طبيعية أملتها الجذور التاريخية للعلاقة بين العرب واليهود. ولذا نجد أن هناك من يصنف المستشرقين على فئتين:

فئة تستحق التقدير والاحترام لما لها من المآثر في نشر العلم والثقافة وتسهيل الوصول إلى مؤلفات وأعمال ودراسات بادروا إلى تحقيقها ودرسها وفهرستها ونشرها. وهذه الفئة هي التي كانت ذات أهداف علمية نزيهة.

وفئة أخرى - ومعظمهم من اليهود، أو ممن يتعاطف معهم - درسوا الإسلام وعلومه قصداً إلى محاربتته وإنكار أصالته وأهميته وأثره في تفكير المؤلفين الأوروبيين وفي المنجزات الفكرية الحضارية<sup>(1)</sup> وهذا تقسيم سريع لفئات المستشرقين أريد منه التأكيد على التأثير اليهودي على الفئة الأخرى للاستشراق. والحق أن المستشرقين طوائف عدة إذا نظرنا إليهم بعيداً عن جنسياتهم وخلفياتهم الثقافية. فمنهم فئة لم تملك ناصية اللغة فأخطأت في نشر الكتب وفي

(1) محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم: عرض موجز لمواقف وآراء وفتاوى بشأن ترجمة القرآن الكريم مع نماذج لترجمة تفسير معاني الفاتحة في ست وثلاثين لغة شرقية وغربية. ط2. بيروت: دار الآفاق الحديثة، 1403هـ. ص93 - 94.



فهم النصوص. ومنهم فئة آثرت في دراساتها مآرب السياسة والتعصب للدين فوجهت الحقائق وفسرتها بما يوافق أغراضها أو ما تسعى إليه. ومنهم فئة أوتيت الكثير من سعة العلم والتمكن من العربية والإخلاص للبحث والتحرر والإنصاف<sup>(1)</sup>.

ومثل هذا أن يقال عنهم إنهم فئات متعددة حسب الميول والأهواء. فالفئة ذات المآرب السياسية هي الفئة التي يمكن أن يقال عنها إنها الفئة المتعصبة للغرب وطنياً وجنسياً، وهناك فئة المستشرقين الماديين الملحدين الذين يدعون إلى هدم المجتمعات القائمة ويؤكدون على أن الأديان تقف في عقبة في طريق الإصلاح الاجتماعي، وهناك فئة المؤمنين المحترفين سماسرة التنصير يتخذون من تشويه الإسلام صناعة لهم يستدرون بها الرزق، وهناك طائفة المغرمين بالأساطير والخرافات والخيال ينقلون عن المجتمع العربي المسلم صوراً علقت في أذهانهم عندما قرأوا (ألف ليلة وليلة). وهناك فئة الصهاينة وهي أخطر الفئات على الإطلاق لما يتوافر لها من الإمكانيات المادية والوسائل الدعائية والإعلامية ودور النشر وغيرها<sup>(2)</sup>. وهناك فئة المستعمرين التي تبحث الآن عن مجالات أخرى تخدم فيها الاستعمار بعد أن شهدت أفوله على أرض العرب والمسلمين.

والمستشرقون من حيث اهتماماتهم فئات أيضاً. فهناك فئة عانيت بالقرآن الكريم وعلومه، وهناك فئة اهتمت بسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وهناك فئة عانيت بالسنة والحديث. وهناك فئة ركزت على الفرق الإسلامية. وهناك فئة عانيت بالتعاليم الإسلامية، وهناك فئة اهتمت بالفن الإسلامي، وهناك فئة ركزت على الولاة والأمراء وحكام الأمصار والخلفاء في الدولة الإسلامية، وهناك فئة درست الحضارة الإسلامية ومآلها من تأثير وما عليها من تأثير<sup>(3)</sup>

وهناك فئة تخصصت في الآداب العربية، وهناك فئة اهتمت بالفن الإسلامي. وفئة أخرى اتجهت إلى العلوم عند المسلمين. وهكذا تتعدد الفئات حسب الاهتمامات. ويدخل اليهود المستشرقون في هذه الفئات جميعها محاولين عدم التمييز عن غيرهم من المستشرقين، بل ربما تعمدا إخفاء الخلفية العرقية التي يعودون إليها واكتفوا بأنهم مستشرقون إنجليز أو فرنسيون أو ألمان أو هولنديون أو أمريكيون.. إلخ (وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهوداً حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالي يقل تأثيرهم... وبذلك كسبوا مرتين:

(1) صلاح الدين المنجد: المنتقى من دراسات المستشرقين: دراسات مختلفة في الثقافة العربية: ج1، ط2. بيروت: دار الكتاب الجديد، 1396/1976م. ص ج - د.

(2) عباس محمود العقاد. ما يقال عن الإسلام. القاهرة: دار الهلال. 1386هـ/1966م. (سلسلة كتاب الهلال/ 189). ص 9 - 18.

(3) محمد عبدالفتاح عليان. أضواء على الاستشراق. ص 53 - 57.

كسبوا أولاً فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها، وكسبوا ثانياً تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام، وهي أهداف تلتقي مع أهداف غالبية المستشرقين النصارى<sup>(1)</sup>.

ولذا نجد الصعوبة في تحديد كتهمهم من حيث الخلفية العرقية. ويرصد (العقيقي) تسعة وعشرين مستشرقاً عاشوا بين القرنين العاشر والسادس عشر الميلاديين ويعتبرهم (طلّاع المستشرقين) فلا نجد منهم يهوداً إلا اثنين تنصرا هما (يوحنا بن داود الإسباني) (ويوحنا الإشبيلي) اللذان عاشا في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي<sup>(2)</sup>. وتنصرهما يؤيد الرأي القائل بأن المستشرقين اليهود تعمدوا إخفاء حقيقة انتمائهم.

1 - ولعل أبرز المستشرقين اليهود (إيناس غولدتسيهر 1850 - 1921م) وهو مستشرق مجري (هنجاري) اتجه إلى دراسة العبرانية وتخرج باللغات السامية. ثم اهتم بالعربية والإسلام ونشر أبحاثه بالألمانية والفرنسية والإنجليزية. ويعد من الذين أسهموا في تغيير الدراسات العربية الإسلامية تغييراً جذرياً، إذ وضع خطة عامة اتبعتها مستشرقون بارزون بعده واعترفوا له بأنه اعطى الدراسات العربية والإسلامية في الغرب قالباً جديداً<sup>(3)</sup>.

2 - ومن أبرز المستشرقين اليهود (غوستاف فون غرونباوم 1909 - 1972م) وهو نمساوي الأصل. تخرج من جامعتي فينا وبرلين وانتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ينتقل بين جامعاتها ويغلب على إنتاجه اهتمامه بالأدب العربي.

3 - ومستشرق آخر فرنسي معاصر هو (كلود كاهين المولود سنة 1909م) تخرج باللغات الشرقية من السوربون ومدرسة اللغات الشرقية ومدرسة المعلمين العليا وحاضر في مدرسة للغات الشرقية وعين أستاذاً لتاريخ الإسلام في كلية الآداب بجامعة (ستراسبورج)، ثم في جامعة (باريس). ويغلب على أعماله التركيز على التاريخ. وغير هؤلاء من مشاهير المستشرقين اليهود، وقد أورد (محمد بن عبود) مجموعة الأسماء اللامعة في عالم الاستشراق اليهودي لعله من المناسب إثباتها هنا<sup>(4)</sup>. مع الاستعانة (بالعقيقي) في (المستشرقون) للتعرف عليهم ومنهم من لم يذكره (محمد بن عبود) ومنه من لم يترجم له (العقيقي).

(1) محمود حمدي زفروق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. ص 44.

(2) نجيب العقيقي. المستشرقون. ج 1/112.

(3) محمد بن عبود. ((الاستشراق والنخبة العربية)) . ص 207.

(4) محمد بن عبود ((الاستشراق والنخبة العربية)) ص 209 - 210.

- 4 - (سليمان مونك 1805 - 1867م) وهو ألماني الأصل فرنسي النشأة والوفاة يتكلم الألمانية والفرنسية والعربية والفارسية والسانسكريتية، وأكثر آثاره دراسات ضمنها شهريات المجالات الفرنسية.
- 5 - (كارل بول كازباري 1814 - 1892م) مستشرق ألماني تحول إلى النصرانية معتقاً الكاثوليكية اشتهر بتفسير التوراة. له (القواعد العربية) باللاتينية، وتعليم المتعلم للزرنوجي، أشرف على طبعه وقدم له (فلايشر) وطبع في (لايبيغ 1838م وقازان 1901م) .
- 6 - (جيمس دار مشتيتير 1849 - 1894م) مستشرق فرنسي من أساتذة معهد فرنسا - تتبع المهدي منذ نشأة الإسلام إلى 1885م وركز على آثار فارسية وزرادشتية.
- 7 - (جوزف ديرنبورغ 1811 - 1895م) من مستشقي فرنسا. عني عناية تامة بالتلمود، وأصبح من كبار علماء العبرية والعربية وتوفي بباريس. غلبت على تصانيفه اللغة والأدب.
- 8 - (مورتر شتايناشايدر 1816 - 1907م) مستشرق ألماني تعلم العربية في النمسا وعمل في المكتبة البودلية وفي مكتبة برلين الوطنية. يغلب على إنتاجه الضبط البليوغرافي للمخطوطات العربية والترجمات. وبرز اهتمامه باليهودية من خلال آثاره.
- 9 - (هارتفغ ديرنبورغ 1844 - 1908م) (هرتوغ ديرنبورغ) وعن (العقيقي) أنه ابن (جوزف ديرنبورغ) وعن (محمد بن عبود) أنه أخوه، وهو من مستشقي فرنسا ولادته ووفاته بباريس. ودرّس العربية بألمانيا وعين أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ثم في مدرسة الدراسات العليا ثم بقسم المخطوطات بمكتبة باريس الوطنية. وكانت له صولات وجولات مع المخطوطات في الأسكوريال ومدريد وغرناطة. له آثار عدة في اللغة والأدب.
- 10 - (إدوارد غلازر 1855 - 1908م) من المستشرقين النمساويين. وكانت وفاته بميونخ، عين مساعد أستاذ اللغة العربية بجامعة فينا، طاف بلاد العرب في آسيا وأفريقيا خرج منها بألف واثنين وثلاثين من الكتابات القديمة المنقوشة على الأحجار، ومائتين وخمسين من مخطوطات الزيديين في اليمن، ونشر كتابات حميرية.
- 11 - (سيجموند كرانكيل 1855 - 1909م).
- 12 - (ديفيد إبراهيم موفيش شورسون 1818 - 1911م) مستشرق روسي تحول إلى النصرانية معتقاً اللوثرية. كان متخصصاً باللغة العربية. ويتقن اللغة العربية ويعتبر من مؤسسي المدرسة الروسية للدراسات الإسلامية.

- 13 - (يوليوس ليرت 1866 - 1911م) مستشرق ألماني ركز على الطب عند المسلمين وخاصة طب العيون وله فيه آثار منها أطباء العيون عند العرب في مجلدين عاونه فيه ((هيرشبرغ وميتفوخ)).
- 14 - (ويلهلم باكر 180 - 1913م) من المستشرقين الألمان، ركز جل اهتماماته على فارس.
- 15 - (جوزف هاليفي 1837 - 1917م) مستشرق تركي الأصل فرنسي النشأة يعد من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بالسربون. تلمص شخصية متسول يهودي وجال بجنوبي بلاد العرب ووصل إلى نجران. وعاد معه ستمائة وستة وثمانين نقشاً من كتابات قديمة. وركز في بحوثه على السامية وما يتعلق بها.
- 16 - (هيرمان ريكندروف 1863 - 1924م) من المستشرقين الألمان انصرف لدراسة اللغات السامية و(المصرية) والسكربتية والصينية - عين أستاذاً للعربية في فرايبورغ. ركز في دراساته على النحو العربي مع دراسات في الأدب.
- 17 - (يوليوس هيرشبرغ 1843 - 1925م) مستشرق بولوني متخصص بتاريخ اليهود في الجزيرة العربية كتب عن السموع وديوانه. وله آثار ركز فيها على اليهود في المجتمع الإسلامي.
- 18 - (دافيد سانتلانا 1845 - 1931م) من مستشقي إيطاليا ومن مواليد تونس. درّس القانون واشتهر بالفقه الإسلامي. وضع القانون المدني والتجاري لتونس بدعوة من المقيم الفرنسي فيها. وقد أخذ كثيراً من الشريعة الإسلامية، درّس بمصر الفلسفة الإسلامية واليونانية والسريانية. آثاره يغلب عليها الفقه والقانون والفلسفة.
- 19 - (جوزف هوروفتزر 1874 - 1931م) من المستشرقين الألمان. درّس العربية في جامعة عليكرة بالهند، وتخصص بالإسلام في الهند. انتقل إلى ألمانيا ودرّس بجامعة فرانكفورت، وعد من أشهر أساتذتها. له مصنفات وآثار في معارف كثيرة.
- 20 - (ماكس سوبرهايم 1872 - 1932م).
- 21 - (ج برجشتراسر 1886 - 1933م) من المستشرقين الألمان درّس الفلسفة واللغات السامية والعلوم الإسلامية، ودرس اللهجات العامية. زار تركيا ومصر وعمل فيهما. سقط على أحد جبال الألب فمات. له آثار عدة عن القرآن الكريم والفقه الإسلامي.
- 22 - (هرفترج هيرشفيلد 1854 - 1934م) مستشرق ألماني عنى بالدراسات السامية. وكتب عن السمؤال وشعره والشعر المنسوب له. كما كتب عن حسان ابن ثابت وله دراسات في اليهودية والإسلام.

- 23 - (ريتشارد غوتهايل 1862 - 1936م) من المستشرقين الأمريكيين تخرج من جامعات ألمانيا. أتقن العربية على يد شيخ من مشايخ الأزهر. درّس في كولومبيا. تنوعت آثاره من حيث الفنون التي طرقها.
- 24 - (أ. ي فنسك 1882 - 1939م) مستشرق هولندي: أتقن اللغات السامية، وتخصص في أديان الشرق، وعني بالحديث الشريف، ووضع مع مجموعة من المستشرقين المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ولم يتمه. وتولى تحرير دائرة المعارف الإسلامية. اهتم بموقف الرسول - عليه الصلاة والسلام - من اليهود وله آثار أخرى.
- 25 - (ديفيد صموئيل مرجليوث 1858 - 1940م) مستشرق إنجليزي دخل سلك الرهبنة ويعد من أئمة المستشرقين. كتب بالعربية بسلاسة وهو صاحب نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي. له آثار ومباحث وتحقيقات عدة.
- 26 - (يوجين ميتفوخ 1867 - 1942م) مستشرق ألماني تخصص في فقه اللغات السامية وركز على فقه اللغة الحبشية والسبأية وتاريخ جنوب الجزيرة العربية. وشارك في نشر كتاب أطباء العيون عند العرب مع (ليبرت) و(هيرشورغ) سالف الذكر. وحاول ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأمهرية.
- 27 - (بول كراوس 1904 - 1944م) مستشرق ألماني تقلد مناصب تعليمية عدة في ألمانيا وفرنسا ومصر. وشهد له أعلام المستشرقين بالعمق والشمول والتفرد وكان يتوقع له مستقبل باهر. إلا أنه أنهى حياته بنفسه. ركز على إسهامات المسلمين العلمية.
- 28 - (ماكس مايرهوف 1874 - 1945م) من المستشرقين الألمان تخرج طبيباً وزاول الطب. وتعلم اللغات في القاهرة خاصة التي تتحدثها القاهرة وعالج فقراءها مجاناً، ودرس الطب العربي وكتب عنه كتابات مرجعية وله فيه آثار عدة.
- 29 - (أ. شاده 1883 - 1952م) مستشرق ألماني تخرج باللغات الشرقية ودرّس في هامبورج وفي مصر، عني بكتابته عن بعض الأدباء المعاصرين. ترجم ونشر مجموعة من الدراسات والشروح.
- 30 - (كارل بروكلمان 1868 - 1956م) مستشرق ألماني تخرج باللغات السامية واشتهر بلغته العربية والتاريخ الإسلامي والأدب العربي ودرسها في جامعات شتى. واشتهاره بالأدب العربي لم يقتصر على المفهوم الشائع للأدب العربي، بل إن مؤلفاته تشير إلى اضطلاعها بإسهامات المسلمين في شتى مجالات المعرفة التي برزت في كتابه (تاريخ الأدب العربي). وكتابه

(تاريخ الشعوب الإسلامية). وآثاره غير يسيرة وترجم لمجموعة كبيرة من أعلام المسلمين في دائرة المعارف الإسلامية.

31 - (إيفارست ليفي - برفنسال 1894 - 1956م) من مستشرقين فرنسا. ولد بالجزائر ودرس بها، ثم درس بالمغرب العربي وركز على لغة جبلة، شمالي المغرب. أمضى معظم وقته في الشمال الأفريقي يدرس ويبحث. تخصص كثيراً في الأندلس، وعُدَّ مرجعاً فيه، وله فيه باع طويل من البحوث والدراسات. ووجد في التسامح الإسلامي نحو اليهود في الأندلس ما ينقض العنصرية والاضطهاد اللذين عانى منهما اليهود في حياته، ولذا برز حينه إلى الأندلس وأهلها.

32 - (ليو آريه ماير 1895 - 1959م) من المستشرقين النمساويين. اختير رئيساً لمعهد العلوم الشرقية في القدس. وأصدر حولية في الآثار والفنون الإسلامية بعدة لغات، ركز على فلسطين في آثاره.

33 - (لوي ماسينيون 1883 - 1962م) مستشرق فرنسي تتلمذ على مشاهير المستشرقين وكانت له صولات وجولات علمية وعسكرية في الشرق. واهتم بالتصوف وكتب عنه بدائرة المعارف الإسلامية. له من الآثار ما يربو على ستمائة وخمسين بين مصنف ومحقق ومترجم ومقالة ومحاضرة وتقرير ونقد. له أباد ((بيضاء)) على الحركة الاستعمارية في العالم العربي.

34 - (وليام بوبر 1874 - 1963م) مستشرق أمريكي ومن أعلام المستشرقين في أمريكا. تنقل بين البدو وأخذ عنهم لهجاتهم وقصصهم، وعاد إلى الولايات المتحدة ودرس بجامعة كاليفورنيا. وواصل جهود سابقه في نشر كتاب (النجوم الزاهرة) (لابن تغري بردي).

35 - (روبن ليفي 1891 - 1966م) مستشرق بريطاني تعلم في جامعات نورث ولسون وبنجور وأكسفورد. عمل في العراق وأقام في أمريكا وعاد إلى بريطانيا. له آثار في فارس والعراق وغيرها.

36 - (جورجيو ليفي دلافيدا 1886 - 1967م) من المستشرقين الإيطاليين، أستاذ العربية واللغات السامية المقارنة بجامعة روما، ومن كبار الباحثين في تاريخ الدين الإسلامي وغلب على آثاره اهتمامه بالشعر والشعراء.

37 - (جوزف شاخ 1902 - 1969م) مستشرق ألماني تقلد مناصب تعليمية عدة في ألمانيا ومصر وبريطانيا وأمريكا والجزائر وهولندا. وقد اشتهر بدراسة التشريع الإسلامي وبيان نشأته وتطوره و(تأثره) وأثره. وله آثار عدة وهو من محرري دائرة المعارف الإسلامية.

38 - (مارسل كوهين 1884م) مستشرق فرنسي وعالم لغوي من أساتذة مدرسة اللغات الشرقية ومدرسة الدراسات العليا بباريس. له بحوث وآثار سامية تركز فيها على اللغات السامية.

39 - (مكسيم رودنسون 1915م) مستشرق فرنسي ماركسي درّس في باريس في المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية والمدرسة العلمية للدراسات العليا. درّس في صيدا وعمل في بيروت ودمشق أمين مكتبة، له آثار كثيرة غلب عليها اهتمامه بالاقتصاد الرأسمالي والماركسي، كما غلبت كتابته في الوضع العربي الراهن، عرف عنه معارضته للصهيونية.

40 - (برنارد لويس 1916م) مستشرق بريطاني درّس في لندن وباريس، ودرّس في الولايات المتحدة الأمريكية بجامعة برنستون وغيرها من جامعات الولايات المتحدة، بالإضافة إلى تدريسه في جامعات بريطانيا. ركز في دراساته على التاريخ عموماً وعلى تاريخ الإسماعيلية بخاصة، ويتابع النشاط الإسلامي في أوروبا وأمريكا. لا يتورع عن التأكيد على صهيونيته وإعلانها.

41 - (ديفيد كوهين) مستشرق فرنسي معاصر وعالم لغوي له آثار لغوية عدة في السامية.

42 - (إسرائيل ولفنسون) معاصر ويكنى بأبي ذؤيب. درّس اللغة السامية بدار العلوم ثم بالجامعة المصرية. له تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام بالعربية. وقدم له (طه حسين). وتاريخ اللغات السامية بالعربية، و(موسى بن ميمون) حياته ومصنفاته بالعربية، وقدم له ((مصطفى عبدالرازق) ، وكعب الأحبار بالألمانية. ونشر كتاب (المصائد والمطارد) (لأبي الفتح كشاجم) ويعد من المستشرقين الألمان.

ومن الصعب جداً حصر الأسماء اليهودية في عالم الاستشراق للأسباب سالفه الذكر، ومالم يكن الباحث عالماً بطريق غير مباشر عن كنه المستشرق، إلا أنه يغلب على المستشرقين اليهود اهتمامهم المباشر بالسامية وتعلقهم بها، حتى لا يكاد مستشرق يهودي يطرق أبواب الاستشراق دون أن يمر على اللغات السامية أو يتقن العبرية. ولعلمهم بهذا يقتفون أثر (إمامهم) إيناس جولدتسيهر) الذي بدأ رحلته الاستشراقية بالاهتمام بالعبرانية ثم اتجه منها إلى الإسلام والعربية<sup>(1)</sup>.

وتزداد الصعوبة في الوقت الراهن عندما ندرك أن اليهود عملوا على السيطرة على مراكز ومعاهد الدراسات الإسلامية والعربية والشرق أوسطية، فوجهوها الوجهة التي تعين على تثبيت أقدام اليهود في فلسطين المحتلة. وهذا يقلق كثيراً من المستشرقين من غير اليهود ممن يمكن أن يوصفوا بالنزاهة والتجرد. وقد صرح لي بهذا الأستاذ (رالف برايتي) أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة (دوك) بولاية (نورث كارولينا) بالولايات المتحدة الأمريكية. والمقصود هنا

(1) قد يذكر اسم ((جولدتسيهر)) الأول على أنه ((إجناس)) إذ يكتب باللاتينية (Ijnas) وهذا المستشرق استقر به المقام في ألمانيا وغالبية أعماله بالألمانية ولذا يذكره الألمان على أنه ((إيناس)) بالياء لأنهم ينطقون حرف (j) ياءً...

النزاهة النسبية التي تتضح لبعض الباحثين دون بعض اعتماداً على نظرة الباحث إلى المستشرق الموسوم بالنزاهة.

ولا تقتصر السيطرة على إدارة هذه المراكز والمعاهد فحسب، وإنما أيضاً شملت التحكم فيما يقال عن المنطقة في المؤتمرات والندوات التي تنعقد في الجامعات والمؤسسات العلمية والتعليمية. فالتى لا تتاح لهم فيها فرصة المشاركة الفعلية تراهم يرسلون إليها مندوبين لهم يرصدون ما يقال في هذه اللقاءات ويكتبون عنه التقارير لمكتب الملحقية الثقافية اليهودية، وهذا بدوره يكتب لهذه المؤسسات طالباً عدم التعرض لليهود ولدولتهم في فلسطين بشيء من السلبية. هذا بالإضافة إلى رصد المعلومات عن هذه الأنشطة ومعرفة توجهها ومحاولة الإسهام فيها.

ولذا لا يستبعد المرء أن تستفحل حركة الاستشراق الصهيوني وأن تكون الطاغية على الاستشراق في فترة تأتي قد تطول إذا ما استمرت السيطرة الصهيونية على جميع مرافق الحياة العلمية والاقتصادية والسياسية في المجتمع الغربي عموماً، وفي مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية بخاصة بعد تسلمها زمام الحضارة الغربية من أوروبا، مما أتاح للمستشرقين وغيرهم من اليهود أن يصبوا جام غضبهم بسبب ما حصل لهم من اضطهاد في أوروبا على بعض الحركات السياسية والعرقية فيها، وبصورة أوسع وأشمل وأوضح على طرف ثالث أكثر من الطرف الثاني الأوروبي، وقد برزت ردود الفعل هذه (بوضوح، خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، في كتابات المستشرقين الصهاينة وعلى رأسهم (بارنارد لويس). إن بذور الصهيونية قد غرست خلال القرن التاسع عشر (الميلادي) ولكن الشجرة الصهيونية قد ازدادت نمواً خلال القرن العشرين (الميلادي)، فكان الهدف الأصلي لهذه الحركة من وراء اهتمامها بالإسلاميات الحصول على المعلومات الكافية عن الفلسطينيين الذين سيتكون بلادهم لتؤسس فيه الدولة الصهيونية مستقبلاً. كما أولى الصهاينة اهتماماً كبيراً للدول المجاورة لفلسطين لمنع احتمال ردود فعل ضد تأسيس دولة إسرائيل. وكان الصهاينة - شأنهم في ذلك شأن أسلافهم المستعمرين - مهتمين بالدراسات العربية والإسلامية أساساً كوسيلة لتحقيق أهداف سياسية<sup>(1)</sup>، وإذا كان يتردد أن تأثير الاستعمار قد انتهى فلا يزال للصهيونية تأثيرها في الدراسات العربية والإسلامية خصوصاً في الولايات المتحدة - كما سبق التنويه به -.

وقد ساعد التنصير على ترسيخ فكرة الاستشراق الصهيوني من خلال تشجيع دراسة اليهود للعرب والمسلمين مما ساعد على استغلال التنصير لليهود في سبيل تحقيق أهداف

(1) محمد بن عبود. ((الاستشراق والنخبة العربية)) . ص211.



التنصير الدينية والسياسية. وقد اقتنع المنصرون أن جمع اليهود في فلسطين يسهل لهم مهمتهم في الوصول إلى المسلمين<sup>(1)</sup>. ولا تزال الجمعيات التنصيرية تنطلق من فلسطين المحتلة رغم سيطرة اليهودية على البلاد. ولا بأس - في نظام القوم - من أن تتضافر الجهود في سبيل الحد من (خطر) الإسلام على الأمم الأخرى. ولا بأس - في نظام القوم - من ممارسة (الإرهاب الفكري) ضد الإسلام والمسلمين سعياً وراء توطيد الأقدام في فلسطين المحتلة إلى درجة محاولة تحريف القرآن الكريم وتوزيع نسخ مزورة منه على المسلمين مثلماً حدث في أندونيسيا وغيرها من بلاد المسلمين التي كان يعتقد أنها لجهلها بالعربية لن تنتبه لهذه النسخ المزورة. ومثلما حدث من طباعة (موجزة) للقرآن الكريم صدرت عن (دار ديفز للنشر) وهي دار يهودية مركزها (شيكاغو) بولاية إلينوي بالولايات المتحدة الأمريكية، وسمت هذه الطبعة الموجزة بالقرآن القصير<sup>(2)</sup>، كما فعلوا مع القواميس والمعاجم يصدرن طبعات موجزة عنها للرجوع السريع!

ولا يبدو أن مثل هذه الأساليب ستجدي في تحقيق الأهداف، فهي أعمال يغلب عليها جانب السطحية في المحاولة إذا ما قورنت بما أدخله اليهود على الفكر الإسلامي منذ البدايات الأولى للإسلام، وكانوا السبب الرئيس في اختلاف الأمة وتفرقها ودخول مبدأ البدعة منها والرجوع إلى العقلانية في النظر إلى التشريع<sup>(3)</sup> وتغليب العقل على النصوص أحياناً ولو ثبتت صحتها من قبل كبار المحققين والمخرّجين. وحيث تنبه المسلمون إلى هذه الجوانب وردوا النظريات التي شككت في صحة الحديث والآثار المروية عن الصحابة - رضوان الله عليهم - يلجأ اليهود إلى أساليب جديدة في إدخال (الاسرائيليات الحديثة) على الفكر الإسلامي. وكلما استنفذت وسيلة لجأوا إلى أخرى. وليس في هذا مصدر غرابة أو عجب، فقد (تعوّد) المسلمون على مثل هذه الأساليب وكانوا - ولا يزالون - موفقين في ردها والرد عليها. هذا بالإضافة إلى المعلومة المسبقة عن اليهود مما يجعل اليهود يتفانون في إخفاء كنههم ولو أدى ذلك إلى تنصرهم، بل ربما إلى إسلامهم وصلاتهم مع المسلمين وحضورهم لقاءاتهم واجتماعاتهم وأنشطتهم الأخرى. وانظر - إن شئت - إلى قصة (فريد عبدالرحمن) أو (الفرد دي يونغ) ما يرويها (قاسم السامرائي)<sup>(4)</sup>. ولعل هذا - أيضاً - مما يؤيد صعوبة التعرف عليهم بطرق علمية مجردة. أما الذي لم يمتط صهوة التنصر أو الإسلام فاكتمى بأن يصنف من المستشرقين

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية. ص181.

(2) أحمد بن عبدالله الزغبى. الفكر الصهيوني وأهدافه في المجتمع الإسلامي. 1052/3.

(3) أنور الجندي. شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، دمشق: المكتب الإسلامي، 1398هـ. ص42 - 44.

(4) قاسم السامرائي. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص122.

العلمانيين الذين اشتد أزهرهم في القرن الرابع عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي<sup>(1)</sup>. وزادت شوكتهم في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي وخصوصاً مع قيام دولة إسرائيل في فلسطين المحتلة عام 1368/ 1948م وما صاحب هذا من نقلة في اهتمامات المستشرقين عموماً والعلمانيين بشكل خاص واليهود منهم على وجه أكثر تخصصياً، إذ برزت نعمة تعميق الوجود اليهودي في منطقة (الشرق الأوسط) وكثر التأليف والكتابة عن هذا الموضوع قصداً إلى ترسيخ فكرة حق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين. وإن لم تكن الفكرة وليدة القرن السابق أو القرون الثلاثة الماضية المقرونة بدعوة الحاخام (ليفا 1520 – 1609م) لقيام وطن قومي لليهود<sup>(2)</sup>، فمما لا شك فيه أنها استشرت مع إعلان دولة إسرائيل. واتجه إلى الاستشراق أعضاء جدد لم يكونوا يفكرون بطرق أبوابه من قبل، حتى أنه دخل في هذا المفهوم الكتاب الصحفيون والمعلقون السياسيون والمهتمون بالمنطقة، مما أعطى فكرة الاستشراق شيئاً من السطحية لم تكن تنعم به من قبل. وأصبحت هذه المقالات والتعليقات كتباً تباع في المكتبات على أنها مرجع عن المنطقة. وأصبح كاتبوها ممن يرجع إليهم في تحليل أو تفسير ما يقع في المنطقة من أحداث، وترك هؤلاء لأهوائهم وميولهم العنان في الانطلاق في التحليل والتعليق الذي يناسب الوجهة التي يعملون لها، مع قدر محدود جداً من توفر الوجهة الأخرى، وشبه انعدام للخلفية التاريخية للصراع القائم اليوم.

ولا شك أن لهذا الاتجاه أثره على حركة الاستشراق عموماً وعلى الاستشراق الصهيوني على الأخص، خاصة أن التضخم الاقتصادي وانتشار البطالة قد أسهم في التقليل من الصرف على مراكز ومعاهد الدراسات العربية والإسلامية والشرق أوسطية. فنقصت نسبة الطلبة نظراً لزيادة رسوم الدراسة. وألغيت بعض الأقسام أو قلص من نشاطها، مما ينبغيء بتحول في النشاط الاستشراقي<sup>(3)</sup>. وفي هذه البيئة تتم لليهود السيطرة على مسار الاستشراق فيتصرفون في المؤتمرات أو الندوات والنشرات التي تصدر عن الجمعيات والمراكز الاستشراقية، مما قد يهدد بخطر أكثر عتواً من المرحلة التي كان اليهود المستشرقون فيها منخرطين بين المستشرقين مخفين حقيقتهم. وربما برزت في الأفق دعوى أحقية اليهود في الاستشراق على إعتبار أنهم قريبون من المنطقة، وأنهم جنس سام يدرك ظروف المنطقة، بحكم قيام دولة لهم فيها. إضافة إلى إتقانهم لغة (أعرايية) تسهل عليهم كثيراً إتقان اللغة العربية. وهم في الأصل شوقيون ما يعينهم

(1) نذير حمدان. الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كتابات المستشرقين. ط1 جدة: دار المنارة، 1406هـ. ص38.

(2) علي جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة. المنصورة: دار الوفاء 1407/ 1986م. ص241.

(3) عدنان محمد وزان. الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر. من 139 - 157.

على إدراك المشكلات الشرقية، ويسكنون في الغرب فيدركون حاجات الدول الغربية من المنطقة<sup>(1)</sup>. وهكذا يبررون نزعتهم إلى السيطرة على زمام الاستشراق فلا يُدخلون فيه إلا من يحوم في فلكتهم. وربما طغى الهدف السياسي للمستشرقين عموماً واليهود بخاصة على الهدف الديني على اعتبار أن اليهود ينظرون إلى دولتهم المقامة في فلسطين المحتلة على أنها موطن الجنس اليهودي - وليس الديانة اليهودية. وعليه فإن الهدف الديني غير وارد بالقوة التي يخدمون بها الهدف السياسي في ترسيخ فكرة استمرار الدولة وشرعيتها في البقاء، في الوقت الذي تضعف فيه الحركات التي تصمم على إعادة الأرض إلى أهلها بأي شكل من أشكال الإعادة.

وهكذا يخدمون الصهيونية فكرة أولاً ثم دولة ثانياً. والظروف العامة والظواهر المترادفة في كتابات المستشرقين من هذه الفئة تعزز وجهة النظر هذه وتخلع عليها بعض خصائص الإنتاج العلمي<sup>(2)</sup>.

ومع هذه الجهود المضنية في السيطرة على مسيرة الاستشراق وتوجيهها الوجهة التي تتفق وأهداف وتطلعات الاستشراق اليهودي، مع هذا هل من الممكن اعتبار مدارس للاستشراق تكون ((المدرسة اليهودية) - واحدة منها؟. هناك من صنف الاستشراق إلى أربع مدارس:

1 - المدرسة النصرانية - الكاثوليكية والبروتستانتية.

2 - المدرسة اليهودية.

3 - المدرسة الإلحادية العامة.

4 - المدرسة الإلحادية الشيوعية<sup>(3)</sup>.

ولا شك أن هناك ما تميز به المستشرقون اليهود من حيث تركيزهم على اللغات السامية، وإصرارهم على اعتماد الإسلام على اليهودية، وإقحامهم الإسرائيلييات في التاريخ الإسلامي، وتأكيدهم على وضع اليهود في الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر على المستوى العربي عموماً<sup>(4)</sup>، بل على المستوى العالمي، وهذه كلها لا ترقى إلى أن يكون هناك مدرسة استشراقية يهودية، فلقد جر المستشرقون اليهود غيرهم من الملحدين والنصارى إلى

(1) عمر فوخ. الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة. في الإسلام والمستشرقون. تأليف نخبة من العلماء المسلمين. جدة: عالم المعرفة، 1405هـ. ص 125 - 143.

(2) محمد البهي. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص 431.

(3) عبدالرحمن حسن حينكة الميداني. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير، الاستشراق الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه. ط 4 دمشق: دار القلم، 1405هـ. ص 124 (سلسلة أعداء الإسلام/3).

(4) أنور الجندي. الإسلام في وجه التغريب. ص 309 - 328.

تبنى ما ذهبوا إليه، واتفق المستشرقون اليهود مع غيرهم من المستشرقين على مواقفهم من القرآن الكريم، وسيرة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وسنته، والشريعة والتاريخ الإسلامي والسير وغيرها، فلا تكاد تميز بينهم في مواقفهم هذه. وانخرط المستشرقون (الآخرون) في النظرة المعاصرة للمنطقة فأصبحت تجد صعوبة في التعرف على كُنه المستشرق وهو يتحدث عن المنطقة. ولا تستطيع الحكم عليه باليهودية لمجرد حماسه لدولة إسرائيل. فلقد وجد مستشرقون غير يهود تحمسوا لقيام دولة إسرائيل في فلسطين المحتلة أكثر من تحمس بعض المستشرقين اليهود لها، وذلك لانخراطهم في خدمة الصهيونية العالمية بشكل مباشر أو غير مباشر.

هذا مع التشكيك جملة وتفصيلاً في أن الاستشراق عموماً قد وصل إلى مستوى أن يقسم إلى مدارس لما لمصطلح (مدرسة) من عمق في التفكير وجديد الإضافة والتميز الملحوظ، الأمر الذي لم يتحقق بوضوح في مسألة الاستشراق إلى درجة أنه لا يصل إلى أن يطلق عليه (علم) له أصوله ومناهجه ونظريته التي ينطلق منها، بل ربما صح أنه ظاهرة مثله في هذا مثل التنصير والاستعمار<sup>(1)</sup>.

وما كان التركيز في هذه الجولة إلا على التأكيد على أن الاستشراق قد خدم اليهودية والصهيونية وأن هناك علاقة بين الاستشراق واليهودية بدت واضحة من خلال توجهات المستشرقين عموماً بغض النظر عن خلفياتهم التي انطلقوا منها.

(1) سبقت الإشارة إلى شيء من هذا عند الحديث عن العلاقة بين الاستشراق والاستعمار. أنظر علي بن إبراهيم النملة (العلاقة بين الاستشراق والاستعمار).

## بواعث الاستشراق (1)

إن توجه الأوربيين إلى دراسة العالم الإسلامي في ثقافته وعلومه وعاداته وإمكاناته المادية والبشرية ومعتقداته، وتأسيس لذلك مؤسسات تعتبر جامعات بحق تظلمت بمهمة هذا التوجه من الدراسات التي يعنون بها "الاستشراق" لا بد أن وراء هذا العمل أهداف تحركه وبواعث توجهه ودوافع تدفعه.

### الباعث الاستعماري:

بالرغم من أن كل باحث لا ينكر الباعث الديني أو الهدف الأيديولوجي للإستشراق ((Orientalism)) إذ كان وراء نشأة هذا النوع من التوجه المعرفي، كما سبق وإن رأينا كيف أن الثلة الأولى من المستشرقين خرجت من رحم الكنيسة ومن سطة الأديرة بيد أن الهدف الأساسي الذي خطه لنفسه هذا المنهج، هو الهدف الاستعماري كما أكد ذلك المفكر المستشرق بعد أن هداه الله إلى الإسلام إبراهيم خليل أحمد<sup>(1)</sup> في كتابه: "المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي" (.. أن التبشير والاستشراق دعامتان من دعائم الاستعمار، وأنهما تقاسما الأعمال المقررة لغزو البلاد الإسلامية<sup>(2)</sup>).

الذي يتجلى في محورين أساسيين: المجال السياسي الذي جعلته الدبلوماسية الخارجية لحكومات أوروبا في تعاملها مع العالم الإسلامي مستشارا رسميا وخيارا متمكنا، والمجال الاقتصادي؛ الذي توجهت بعض جهود الباحثين المستشرقين لثرائه وخدمته.

### أولا: البعد السياسي للاستشراق:

يتجلى هذا البعد في الوظائف الدبلوماسية التي أسندت مهامها للعديد من المستشرقين، في جميع بلاد أوروبا واعتماد كثير من وزراء الخارجية والسفراء في العالم الإسلامي على المستشرقين في بناء العلاقات الخارجية مع حكومات البلاد الإسلامية، وضع خطة للتعامل في جميع المجالات معهم، ومن هؤلاء كما سبق وأن أشرت إليه المستشرق الفرنسي جي.ه. Guys.H، عين قنصلا لحكومة فرنسا ببيروت. والذي قام بشرح وترجمة عقائد الدروز.

والمستشرق "فرنيل.ف، Fresnel.F، 1855/1795م"، الذي عين قنصلا في جدة سنة 1830م والذي عني كثيرا بعرب الجاهلية تاريخا وجغرافيا وكتابة ولهجات وكتب ودراسات وترجمات ومقالات كثيرة منها: ترجمة لامية العرب، تاريخ الجاهلية، تاريخ العرب قبل الإسلام والذي حاول

(1) كان قسيسا وعمالا في حقل التنصير بين المسلمين، ثم هداه الله إلى الإسلام.

(2) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير. الاستشراق. الاستعمار. ط2. دار القلم، بيروت. 1980م. ص: 112.

فيه رصد التحولات التي طرأت على المجتمع العربي بعد البعثة، وما الميكانيزمات التي أحدثتها ثورة الإسلام، وله أيضا جغرافية البلاد العربية.

وأوفدت الحكومة الفرنسية المستشرق "سوفير.ه، Sauvair.H"، فتنصلا لها في سوريا حيث مكث هناك ردحا من الزمن، قام خلالها بدراسات وترجمات كثيرة منها: وصف دمشق، ونشرت هذه الدراسة في <<المجلة الآسيوية سنة 1894/1895م>> التي أنشأها المستشرقون وتعنى بقضايا الإسلام والمسلمين، المعروفة بوجهة موضوعاتها وأبحاثها، والقائمين عليها، وترجم إلى الفرنسية فصولا من كتاب: (الأنيس الجليل في تاريخ القدس والخليل) للعلمي.

أما في مهمة الاستشارة والترجمة في الوزارات الخارجية والسفارات والديبلوماسية الغربية، نجد على سبيل التذليل لا على سبيل الحصر. المستشرق "كيفر، Kieffer، 1832/1767م"، ولد في استراسبورغ درس اللاهوت وتخصص فيها فوجد نفسه مضطر التعلم اللغات الشرقية. ولما كانت الصلة قوية ومكثفة بين بلده وبين الباب العالي مركز الخلافة الإسلامية استطاع أن يحصل على ثقة ساسة بلاده بعد تمكنه من لغات ولهجات المجتمعات الإسلامية كالعربية والتركية وغيرهما، عين في الوزارة الخارجية، من نشاطاته بعد رحلته الديبلوماسية، ألقى عدة محاضرات حول العالم الشرقي ((الشرق الإسلامي)) في معهد فرنسا، وله من الأعمال في الميدان العلمي، بعض روايات عربية للشيخ المهدي وكان قد صادفه في مصر فصادقه، وهو من مؤسسي الجمعية الآسيوية الاستشراقية ذات الطابع التنصيري.

وألحق فرانسوا الأول المستشرق "بوستل. ج، Postel.G1581/1505م"، بسفارته بتركيا بعد أن تعلم من اللغات الشرقية: العربية و التركية و الحبشية و العبرية و الكلدانية و السريانية والأرمنية وكلفه بشراء المخطوطات الشرقية (الإسلامية)، ما استطاع وحاول أن يجعل نصيبا منها لنفسه ومن حظ خزائنه مما استنفذت كل ثروته، وجزاه فرانسوا الأول عما بذله من جهود في خدمة الاستشراق فحظي بمكانة مرموقة لديه فاداه دارا ومزارع وجيادا، في ذلك الوقت. ويعود له الفضل في تخريج دفعة وطلّاع من المستشرقين الأوروبيين.

وعين ملك فرنسا المستشرق "دي. كوروا، Caurroy.Du"، مديرا للمدرسة الفرنسية بالقسطنطينية سنة 1802م، ثم أسندت إليه مهمة ترجمانا وناصحا للملك في السفارة الفرنسية بالقسطنطينية، حاول أثناء إقامته بتركيا الحصول على أكبر قدر من المخطوطات النفيسة العربية والإسلامية، أهدى بعضها إلى المكتبة الوطنية بباريس التي بلغ نصاب المخطوطات العربية بها حوالي 7500 مخطوط.

## ثانياً: البعد الاقتصادي للاستشراق:

كانت اهتمامات الغربيين المتطلعة في توسيع تجارتهم والحصول من البلاد الإسلامية على المواد الأولية لصناعاتهم التي كانت في طريقها للازدهار، ومن أجل هذا وجدوا أن الحاجة ماسة للتعرف على البلاد الإسلامية ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية، حتى يضعوا خططهم وفق دراسات علمية دقيقة ومحكمة تقل فيها النتائج السلبية، تمكنهم من وضع سياسة خارجية مع الحكومات الإسلامية، توصلهم إلى مبتغاهم وتحقق مقاصدهم الإستراتيجية.

إن الرحلات التي قام بها المستشرق "ماركوبولو" كشفت عن ثروات كثير من الشعوب وحضارتها المتطورة طمع إثرها الغرب في الاستيلاء على هذه البلاد، والسيطرة على مقدراتها العالمية والاقتصادية والإمام بطرق حياتها، وتركيب سكانها، وهذه المشاريع لا يمكن أن تتم دون أن تسبقها دراسات مفصلة لإعطاء فكرة واضحة لا لبس فيها ولا غموض توطئة لاستعمار هذه الأصقاع، وليس هناك من يقوم بتقديم هذه التقارير إلا المنصرون والمستشرقون، فسخرت الحكومات الغربية هؤلاء الناس لخدمة أغراضها الاستعمارية، وتمثلت في تلك الرحلات التي قام بها الرواد الأوائل من المستشرقين لتقديم صورة جلية عن المجتمعات التي نوت أوربا السيطرة عليها، فقام المستشرقون بأدوارهم على أحسن ما يرام، فقدموا إلى حكوماتهم ما تحتاج إليه من تراث الشرق لفهم عقليته وأمزجته وتفاصيل حياته ومواطن الضعف فيه، وهكذا تسلس هؤلاء إلى الشرق اختلطوا بأهله تجارا، وقناصل، ورحالة، يمهدون الأرضية لتكون صالحة ومهيأة للاستعمار الغربي، فتأسست الجمعيات الجغرافية البريطانية والفرنسية، وأرسلت الرحالة والمستكشفين وكلهم من المستشرقين إلى مجاهل إفريقيا والشرق، لدراسة أحوال تلك البلدان وبيان آفاقها التجارية والاقتصادية، وكتابة تقارير دورية منتظمة ترسل إلى وزارة مستعمرات هذين البلدين لاستخلاص النتائج منها، والعمل على ضوئها على إعداد الخطط للتغلغل في بلدان تلك الشعوب بناء على تلك الدراسات التي تصل إليهم تباعا من أولئك المستشرقين الرحالة والتجار والمستكشفين.

وعلى سبيل المثال: عندما رأت بريطانيا الحاجة ماسة لهذه الكتائب الاستطلاعية والكشفية أسست الجمعية البريطانية لاكتشاف إفريقيا سنة 1788م والتي اجتمعت للمرة الأولى في 09 يونيو 1788م على أن أهدافها حسبما هو مصرح بها في محاضرها كانت لا تعدو حب العلم وحده، المنزه عن المصالح لكن الباحث الدقيق المتمرس يلحظ منذ الوهلة الأولى أن غرض هذه الجمعية ومثيلاتها لم يكن لدوافع علمية صرفة، ولكن تعدتها إلى دوافع أخرى أهمها العامل التجاري الاقتصادي والوصول إلى السيطرة وبسط النفوذ ولبيان صدق هذا الزعم الذي

نزعته نورد بعض عبارات سكرتير الجمعية الإفريقية المذكورة السيد (( وليام بارنج )) الذي ذكر في مقدمة يوميات الرحالة، (( فردريك هورنمان )): (( وإذا استطعنا أن نقوم بهذا الدور النبيل أن ننشر المعرفة والفن ونحمل لهؤلاء القوم المتوحشين الغلاظ روح التقدم فإن ذلك سيكون له عظم الأثر على تجارتنا وخيراتنا ونساهم . فضلا عن ذلك . في تطور المعرفة الإنسانية بمختلف فروعها )) ثم أردف قائلا السكرتير (( إن الأجزاء القابلة للملاحظة لنهري جامبيا والنيجر ليست بعيدة وحين توفر محطات متوسطة ونحدد ملامح الطريق يمكن أن يكون ذلك خير مساهمة لتدعيم المشاط التجاري وإذا استطاعت منتوجاتنا أن تحظى باهتمامهم وتجد طريقها إليهم فسيكون من الصعب حينئذ غزارة الطلب على سلعنا من تلك المناطق الشاسعة الغزيرة السكان )) نجد المستشرق (( وليم جونز )) أيضا قام برحلة إلى آسيا كان يتقن العربية والعبرية والفارسية، وقد أسند إليه أحد المناصب التجارية بشركة الهند الشرقية، سنة 1783م، وقد درست القوانين الهندوسية، والشريعة الإسلامية وقد اعتبره (( آربري )) المؤسس الغير منازع للاستشراق.

قولي (( مصر وسوريا )) قام برحلة إليهما ودونها في كتاب عبارة عن تقارير بعنوان (( رحلة إلى مصر وسوريا )) بقسمين (( السياسي والجغرافي )) .

فالمستشرق الألماني " كاهنريش بيكر، Becker.Karl Heinrich"، توفي سنة 1533م وهو مؤسس مجلة الإسلام الألمانية، كان من أبرز المستشرقين الذين خدموا حكوماتهم الاستعمارية في المناطق الإسلامية، فهذا الأخير قدّم دراسات شاملة عن الشعوب الأفريقية والشعوب الإسلامية على الخصوص إذ يروونه الخصم الوحيد الذي يحول دون الوصول إلى الأهداف الاستعمارية الاستغلالية، فقد أفاد الاستعمار الألماني وأهدافه في أفريقيا، وعلى غرار المعلومات التي حصلت عليها القيادة الاستعمارية الألمانية من هذا المنبر استطاع أن يحصل الرّايخ الألماني سنة 1886/1885م على مستعمرات في أفريقيا تضم مناطق بعض سكانها من المسلمين وظلت مناطق نفوذها حتى سنة 1918م ، وقد أدى هذا الغزو بالحكومة الألمانية إلى تأسيس معهد اللغات الشرقية في برلين سنة 1887م وهو معهد كانت مهمته تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وبلدان الشرق الأقصى وعن شعوب هذه البلدان وثقافتها.

وفي هذا يقول المستشرق الألماني " أوليريش هارمان، Ulrich Harmann": (( كانت الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام 1919م أقل براءة وصفاء نية؛ فقد كان: (( كارل هينريش بيكر . وهو من كبار مستشرقينا منغمسا في النشاطات السياسية في وجه البريطانيين )) .

وقد أفاد الحكومات الاستعمارية وخاصة منها الحكومة البريطانية المستشرق: " لين إدوارد Lane Edward" قصد هذا الأخير مصر سنة 1825مبلغ القاهرة بعد رحلة شاقة على متن



البحر وأقام فيها من 1825 إلى 1828م، وهو متزياً بالزبي العربي مصليا في المساجد متسما باسم: منصور أفندي، ورجع إلى بلاده إنجلترا ثم عاود السفر إلى مصر العديد من المرات. ألف خلالها كتابا في مجلدين من 552ص، اشتملت على وصف حياة سكان القاهرة وأخلاقهم وعاداتهم كانت دربا للمتعاملين مع مصر كسلطة، ونشر هذا الكتاب في أمريكا أيضا، وترجم إلى عدة لغات أوربية منها الألمانية.

والخليق بالذكر أن المستشرقين في أبحاثهم ودراساتهم اعتمدوا كثيرا على كتابات العلماء المسلمين والمؤرخين في معرفة واقع المسلمين في مناطق شتى تاريخيا ووصفا للأحوال الطبيعية والاجتماعية والعلمية.

فوجد على غرار ذلك المستشرق الفرنسي: "سالمون. ج، Salmon.G"، أعدد (المسرد الجغرافي لإقليم الفيوم)، الذي اجتزأه ولخصه من كتاب النابلسي ((تاريخ الفيوم)) وأعدّ لحكومة بلاده مباحث عن تخطيط القاهرة، قلعة الكيش، وبركة الفيل، مع خرائط توضح المعالم توضيحا جيدا. وتقريباً عن بعثة دمياط، واقتنى نصاً عربياً غير منشور لتاريخ نصارى مصر الذي كان دربا للحكومات الغربية في استغلال هذه الفئة في بلد كمصر يعتبر كعبة للمسلمين في المعارف والثقافة الإسلاميين.

وأفاد بعض المستشرقين قياداتهم في الحكومات الاستعمارية ببعض الدراسات حول التركيبة الاجتماعية لبعض المجتمعات الإسلامية لكي يستغلوا ما من شأنه يضعف شوكة المسلمين ويزيد من شتاتهم.

فوجد المستشرق "جي. ه. Guy.H"، أسندت إليه مهمة قنصل في بيروت، ترجم وشرح عقائد الدروز التي قام بها القس ((حنانيا منير الزوقي اللبناني المسيحي)). اشتمل هذا السفر على تاريخهم وعاداتهم ومشربهم السياسي، وصنّف دراسة عن عادات وشعائر النصيرية التي شردت المسلمين في سوريا.

### الباعث العلمي للاستشراق:

إن الباعث العلمي للمستشرقين يتجلى في مظهرين أساسيين من خلال تعاملهم مع المخطوطات الإسلامية وتراث المسلمين العلمي والفقهي (الأكبر والأصغر).

إنه يكاد يكون من المسلمات أن أوروبا ظلت تعيش حتى القرن الحادي عشر الميلادي غارقة في التخلف والتأخر، في حين كانت الحضارة الإسلامية في الشرق أو في الغرب قد بلغت حداً فائقاً هيأ لها أن تكون أرقى الأمم والحضارات آنذاك كما لا يشك الباحثون عن أسباب النهضة الأوربية في أن أهم الأسباب الدافعة للنهوض العلمي والصناعي؛ هي الاتصال بالمسلمين

زمن الحروب الصليبية، وانتقال كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربي وليس فحسب، بل قد تعرّف الغرب على الحضارة الإسلامية وميكانيزماتها من قبل عن طريق الاحتكاك بالمسلمين في إسبانيا وصقلية، فقد كان كثير من معطيات الحضارة الإسلامية قد ترجم إلى اللغة اللاتينية فانتقلت إلى الغرب الأوربي بعض علوم المسلمين ومعارفهم قبل الحروب الصليبية، كان ذلك عن طريق الجهود التي بذلتها ثلة من أبناء الغرب قبل الحروب الصليبية بمحك من الكنيسة.

لقد اهتم كثير من المفكرين الغربيين الذين درسوا الفكر الإسلامي بعد أن عرفوا لغته وأدبه، بالمخطوط العلمي العربي الإسلامي، فكان ذلك نواة لهم في بناء حضارة علمية عرفت كثيرا من النكد إزاء الكنيسة.

إن نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلاديين عرفت النهضة العلمية الأوربية حركة ترجمة الكتاب العلمي بعد تحقيقه إذ جاءت ظروف تاريخية بعدها هيأت لهم أسباب الحصول على عدد كبير من المخطوط العلمي العربي . الإسلامي.

لقد أفاد أوروبا مثلاً من علوم المسلمين وطبهم، وليس بين الباحثين من ينكر أن المسلمين قد أفادوا في الطب والعلوم من عاصروهم من سكان أوروبا منذ ظهر الإسلام. وإلى ان كان عصر النهضة العلمية في أوروبا، كما سبق الإشارة إليه، في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحرم صناعة الطب لاعتقادهم أن المرض عقاب إلهي لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عن يستحقه، وهو الوقت المسمى عندهم بعصر الإيمان، ففي مطلع القرن الثاني عشر الميلادي كان المسلمون يمارسون الطب منذ زمن مبكر عن ذلك. نجد مثلاً في بداية القرن العاشر الميلادي، في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله، دعا إلى الامتحان في بغداد تسعمائة طبيب، فكم كان عدد الأطباء الفعليين في بغداد وحدها آنذاك؟ فضلاً عن باقي بقاع العالم الإسلامي الأخرى.

ولكي نتعرف على أثر الطب العربي في الغرب الأوربين كان علينا أن نذكر على سبيل التذليل بعض الكتب الجامعة التي أفادت منها دول أوروبا وجامعاتها، بل اتخذتها لمدى طويل أساساً تعتمد عليه، ومن هذه الكتب:

1. كتاب ((القانون)) للشيخ الرئيس ابن سينا، فقد اعتمدت عليه جامعات أوروبا في تدريس الطب حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي، وهو كتاب نال تقدير الأوربيين وغيرهم، ولا تزال موضوعات كثيرة مما تحدث عنها ابن سينا جديرة بالتقدير حتى الآن، وترجم إلى كثير من لغات الأوربيين واللاتينية وغيرها.

- 2 . كتاب ((التصريف لمن عجز عن التأليف)) لخلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة 427هـ، وهو كتاب ترجم إلى اللاتينية، والكثير من اللغات الغربية، أفاد منه الأوربيون في الطب والجراحة، فهو يذكر في كتابه آلات جراحية من عمله، ويبين بالرّسم شكلها ويوضح طريقة استعمالها.
- 3 . كتاب ((الحاوي)) لمحمد بن زكرياء أبي بكر الرازي المتوفى سنة 311هـ، وهو كتاب في الطب ((الإكلينيكي)) والرازي هو الذي أبدع علم التشخيص المقارن واستقصاء الدلالات والتمييز بين الأمراض المتشابهة وهو الذي قدّر التدوين في ذلك كله.
- 4 . ((الأدوية المفردة)) لعبد الله بن أحمد البيطار المتوفى سنة 646هـ، وقد أفاد الغربيون منه أكبر فائدة في علم العقاقير والأدوية المركبة والمفردة، وظل كتاب ابن البيطار مرجعا للأوربيين حتى أواسط القرن الثامن عشر الميلادي.
- 5 . نظام المستشفيات ((البيمارستانات)) وهو نظام عرفه المسلمون ونقله الأوربيون، وقد عني البابوات وبعض ملوك أوروبا بإقامة المستشفيات على البيمارستانات الإسلامية، ولقد استفاد الغرب بنقل التراث العلمي إلى لغاته عن طريق المستشرقين الذين تمكنوا من الوصول إلى هذا المجال من الثقافة الإسلامية والتراث العلمي.
- 6 . كتاب ((الخازن)) نجد قد استفادوا من مدوناته في الجاذبية والربط بين السرعة والثقل والمسافة قبل أن تنسب كثير من هذه الاكتشافات والإبداعات إلى نيوتن .
- 7 . واستفادوا من وصف وشرح وتحليل الدورة الدموية الصغرى مما دونه ابن النفيس قبل أن ينسب ذلك إلى ((هارفي)).
- 8 . وكذلك استفادوا مما دونه ابن الهيثم في طبيعة الضوء وسرعته وانكساره قبل أن يصل إلى هذا، المفكرون الغربيون.
- 9 . واستفادوا مما تركه اليتاني والفرغاني والكندي والخوارزمي والصوفي : في علوم الفلك لقياس محيط الأرض وتسجيل مبادرة الاعتدالين، وتقدير حجوم الكواكب، قبل ((جاليلو، وكبلر، وكوبرنيك)).
- 9 . واستفادوا من الخوارزمي في علم الحساب والأرقام، دون الاعتراف بهذا له الآن في موسوعاتهم.
- وكان ديدن المستشرقين في ترجماتهم للمخطوط العلمي الإسلامي (العربي)، أن ينسب إلى غير صاحبه وفعلوا هذا كثيرا في جميع المعارف واستغلوا غباء الأجيال الوارثة لهذا التراث من المسلمين.

أما المظهر الثاني الذي يتجلى فيه تعامل المستشرقين مع المخطوط الإسلامي، ومحكمهم في ذلك الاطلاع والمعرفة.

وهو اهتمامهم بالمخطوطات الدينية، اهتماماً زائداً مبعثهم في ذلك معرفة أحوال المسلمين وتحريف تراثهم العلمي وقد أشرنا إلى هذا من قبل في معرض كلامنا عن البعد الاقتصادي في باعث المستشرقين الاستعماري.

### الباعث الديني للاستشراق:

إن هذا الباعث كان يشكل الباعث الأساسي حينما كان الاستشراق تحتضنه الكنيسة، غير أنه بعد أن انفصل نشاط المستشرقين عن نشاطات الكنيسة، فإننا نجد هذا الباعث تضاعف من اهتمامات المستشرقين وبقي متمثلاً في إنتاج المستشرقين بعض الكتب المشوهة التي تعمد إلى التحريف والمقارنة السخيفة مع الكتب الأخرى، مبددين رضاهم العلمي والعقلاني، لمعطيات الكتب الأخرى وعين السخط علمصا دار الإسلام، ولهم في مجال كتاب الطفل القصصي والتاريخي والعلمي نشاطات كبيرة تخدم الكنيسة ونشاطاتها التنصيرية واليهودية ومبادئها اللذان يلتقي معهما النشاط الاستشراقي في خدمة المشروع التغريبي الذي يورث الشعور بالانهزامية والقابلية للاستعمار.

ويمكن استبعاد رئيسية هذا الباعث لشروط موضوعية، أهمها: اختفاء خدمات المستشرقين لتعاليم الكنيسة وما اعتراها من غبش التحريف وتكرار الأجيال لها، واختفاء مظاهر الالتزام في سلوك المستشرقين، وإذ هم يشقوا طريقهم في البحث العلمي الذي دونوا به رحى الصراع الحضاري بين المسلمين والغربيين لا نجد التفاتة إلى مبادئ النصرانية وتعاليمها المسيحية، بل كثيراً ما يتكبد هؤلاء لها، وهذا لأكبر دليل على ثانوية هذا الباعث؛ إنما هو هدف مرحلي.

## المدارس الاستشراقية

يعد التقسيم الجغرافي للمدارس الاستشراقية أحد التقسيمات المعتمدة حيث أخذ به أحمد سمايلوفيتش في كتابه (فلسفة الاستشراق في الأدب العربي) وقد وجدناه مناسباً للتعريف بالاستشراق كما وجدنا أن الزركلي قد عرف بعدد من المستشرقين المعاصرين في كتابه المشهور "الأعلام" وقد استخرجها الابن عبد الغفار حميدة ونقدمها بعد المدارس الاستشراقية شاكرين له جهده.

### أولاً - المدرسة الإيطالية

لا بد من البدء في إيطاليا ذلك أنها مهد الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، فقد كان البابوات هم الذين وجهوا إلى دراسة اللغة العربية، ومن هنا صدر القرار البابوي بإنشاء ستة كراسٍ لتعليم اللغة العربية في باريس و نابولي وسالونيك وغيرها، وقد تعاون مجموعة من نصارى الشام مع الكنيسة الكاثوليكية لنشر الديانة الكاثوليكية في المشرق، وقد بدأ هذا التعاون باتحاد الكنيستين المارونية والكاثوليكية عام 1575م، وقام المارونيون بترجمة العديد من كتب اللاهوت إلى اللغة العربية.

واستمر اهتمام إيطاليا بالعالم الإسلامي وظهر مستشرقون في المجالات المختلفة ومن هؤلاء على سبيل المثال المستشرق الأمير كايثاني الذي أصدر مؤلفه الكبير (حوليات الإسلامي)، ومنهم أيضاً المستشرق كارلو نيللو الذي درّس الفلك والأدب في جامعة القاهرة<sup>(1)</sup>.

### من أعلام المدرسة الاستشراقية الإيطالية:

#### 1- ديفيد سانتيلانا David Santillana (1855-1931)

ولد في تونس، حصل على الدكتوراه في القانون من جامعة روما وتخصص في الفقه الإسلامي والفلسفة الإسلامية، أسهم في وضع القانونين المدني والتجاري بالاعتماد على الشريعة الإسلامية، عمل في الجامعة المصرية أستاذاً لتاريخ الفلسفة، ثم عمل في جامعة روما أستاذاً للقانون الإسلامي، له العديد من الآثار في مجال الفقه والقانون المقارن.

#### 2- الأمير ليوني كايثاني Leone Caetani (1869-1926)

من أبرز المستشرقين الإيطاليين، فقد كان يتقن عدة لغات منها العربية والفارسية، عمل سفيراً لبلاده في الولايات المتحدة، زار الكثير من البلدان الشرقية منها الهند وإيران ومصر وسوريا ولبنان، من أبرز مؤلفاته حوليات الإسلام المكون من عشرة مجلدات تناولت تاريخ الإسلام حتى

(1) يراجع نجيب العقيقي في كتابه المستشرقون، الجزء الأول

عام 35هـ. وأنفق كثيراً من أمواله على البعثات العلمية لدراسة المنطقة، يعد كتابه الحوليات مرجعاً مهماً لكثير من المستشرقين.

### 3 - كارلو نالينو "Carlo Alfoso Nallino" (1872 - 1938)

ولد في تورينو وتعلم العربية في جامعتها، عمل أستاذاً للغة العربية في المعهد العلمي الشرقي بنابولي ثم أستاذاً بجامعة بالرمو ثم جامعة روما، وعين أستاذاً للتاريخ والدراسات الإسلامية في جامعة روما، ودعي من قبل الجامعة المصرية محاضراً في الفلك ثم في الأدب العربي ثم في تاريخ جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام.

#### ثانياً - المدرسة الهولندية وأعلامها

يعد كتاب الدكتور قاسم السامرائي (الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية) مرجعاً مهماً في دراسة الاستشراق الهولندي فقد ذكر أن الاستشراق الهولندي لا يختلف عن الاستشراق الأوروبي في أنه انطلق مدفوعاً بالروح التنصيرية، وأن هولندا كانت تدور في الفلك البابوي الكاثوليكي<sup>(1)</sup>.

وقد اهتم المستشرقون الهولنديون باللغة العربية ومعاجمها كما اهتموا بتحقيق النصوص العربية، ومما يميز الاستشراق الهولندي وجود مؤسسة برل التي تولت طباعة الموسوعة الإسلامية ونشرها في طبعتيها الأولى والثانية، كما تقوم هذه المؤسسة بطباعة كثير من الكتب حول الإسلام والمسلمين.

ومن أبرز المستشرقين الهولنديين سنوك هورخرونيه الذي ادعى الإسلام وتسمى باسم الحاج عبد الغفار، وذهب إلى مكة المكرمة ومكث ستة أشهر حتى طرده السلطات من هناك، فرحل إلى إندونيسيا ليعمل مع السلطات الهولندية المحتلة لتدعيم الاحتلال في ذلك البلد الإسلامي، ومن أعلام الاستشراق الهولندي أيضاً دي خويه (ت1909م) وفنسك صاحب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وله كتاب في العقيدة الإسلامية، وكذلك المستشرق منسك والمستشرق دوزي.

وذكر الدكتور السامرائي أن الاستشراق الهولندي شهد في السنوات الماضية ظهور تيار من المستشرقين الشباب الذين يميلون إلى النظرة الموضوعية إلى الإسلام وقضاياها وهذا مما أثار حنق وغضب المستشرقين الأكبر سناً، ولهولندا مركز للبحوث والدراسات العربية والإسلامية في مصر. وقد تولت جامعة ليدين تنظيم مؤتمر عالمي حول الإسلام في القرن الواحد والعشرين في الفترة من 3-7 يونيو 1996 بالتعاون مع وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية، وحضر المؤتمر مئة

(1) قاسم السامرائي. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية (الرياض: 1403) ص 103

وعشرون باحثاً من أنحاء العالم، وقد بحث المؤتمرون أوضاع العالم الإسلامي في القرن القادم من خلال ثلاثة محاور:

- الإسلام والمجتمع الدولي
- والإسلام والتنمية
- والإسلام والتعليم.

وقد عقد المؤتمر الثاني في مصر وكان طابعه رسمياً أكثر منه علمياً. ولم يعقد المؤتمر الثالث حسب علمي حتى الآن.

#### من أعلام الاستشراق الهولندي

#### 1- رانيهارت دوزي Rienhart Dozy (1820م-1883م)

ولد في 21 فبراير 1920م في مدينة ليدن، بدأ دراسة العربية في المرحلة الثانوية وواصل هذه الدراسة في الجامعة، حصل على الدكتوراه عام 1881م عن بحثه (أخبار بني عياد عن الكتاب العرب) اهتم بالمخطوطات العربية وبخاصة كتاب الذخيرة لابن بسام وغيره من الكتب، اهتم بتاريخ المسلمين في الأندلس وأبرز كتبه تاريخ المسلمين في اسبانيا المكون من عدة مجلدات.

#### 2- مايكال دي خويه Michael Jan De Goje (1836م-1909م).

ولد في 9 أغسطس 1836م، تخصص في جامعة ليدن بالدراسات الشرقية ومن أساتذته المستشرق دوزي وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان (نموذج من الكتابات الشرقية في وصف المغرب مأخوذ من كتاب البلدان لليعقوبي، عمل في التدريس بجامعة ليدن، وكان أبرز اهتماماته الجغرافيا وكذلك التاريخ الإسلامي، ومن إنتاجه تحقيق كتاب فتوح البلدان للبلاذري، كما شارك وأشرف على تحقيق تاريخ الطبري، وهو غزير الإنتاج.

#### 3- سنوك هورخرونيه Christiaan Snouk Hurgronje (1857م-1936م)

ولد في 8 فبراير 1857م، درس اللاهوت ثم بدأ دراسة العربية والإسلام على يد المستشرق دي خويه، ودرس كذلك على يد مستشرقين آخرين منهم المستشرق الألماني نولدكه، كانت رسالته للدكتوراه حول الحج إلى مكة المكرمة عام 1880م. عمل مدرساً في معهد تكوين الموظفين في الهند الشرقية (إندونيسيا)، أعلن إسلامه وتسمى باسم عبد الغفار وسافر إلى مكة المكرمة وأمضى فيها ستة أشهر ونصف، تعرف خلال هذه الفترة على عدد من الشخصيات في مكة وبخاصة الذين تعود أصولهم إلى الجزر الإندونيسية، جمع مادة كتابه عن مكة المكرمة.

انتقل إلى العمل في إندونيسيا لخدمة الاستعمار الهولندي حيث عمل مستشاراً لإدارة المستعمرات في عام 1891م، يعد سنوك نموذجاً للمستشرق الذي خدم الاستعمار خدمات كبيرة وسخر علمه لهذا الغرض<sup>(1)</sup>.

#### 4- أرنت فنسك Arnet Jan Wensink (1882م-1939م)

تتلمذ على يد المستشرق هوتسمان ودي خويه وسنوك هورخرونيه وسخاو. حصل على الدكتوراه في بحثه (محمد واليهود في المدينة) عام 1908م. بدأ في عمل معجم مفهرس لألفاظ الحديث الشريف مستعيناً بعدد كبير من الباحثين وتمويل من أكاديمية العلوم في أمستردام ومؤسسات هولندية وأوروبية أخرى، وأصدر كتاباً في فهرسة الحديث ترجمه فؤاد عبد الباقي بعنوان (مفتاح كنوز السنة) أشرف على طباعة كتابات سنوك هورخرونيه في ستة مجلدات، له مؤلفات عديدة منها كتاب في العقيدة الإسلامية نشأتها وتطورها التاريخي.

#### 5- جاك واردنبرج Jacque Waardenburg<sup>(2)</sup>

ولد في 15 مارس 1930م، درس القانون بجامعة أمستردام ودرس أيضاً علم اللاهوت بالجامعة نفسها. درس العربية في الفترة من 1953م إلى 1956م بجامعة أمستردام وفي ليدن وفي مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، حصل على منحة من اليونسكو لزيارة بعض الدول العربية والإسلامية فزار إيران ولبنان ومصر والأردن كانت رسالته للدكتوراه بعنوان (الإسلام في مرآة الغرب) من جامعة أمستردام، عمل في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ما قيل بكندا في الفترة من 1962م-1963م، قام بزيارات علمية لأجراء بحوث حول الجامعات في العالم العربي في كل من تونس ولبنان وسوريا والعراق والأردن، عمل باحثاً زائراً في جامعة كليفورينا- لوس أنجلوس وعمل في مجال التدريس في جامعة أوترخت بهولندا (1968م-1987م) ثم انتقل إلى جامعة لوزان بسويسرا وبقي فيها حتى تقاعد عام 1995م.

له إنتاج غزير في مجال الدراسات الإسلامية منها (الإسلام في مرآة الغرب) و(واقع الجامعات العربية - مجلدان) والطرق الكلاسيكية لدراسة الدين، شارك في الكتابة في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) وقد كتب مادة (مستشرقون).

#### ثالثاً - المدرسة الفرنسية

تعد المدرسة الفرنسية من أهم المدارس الاستشراقية وبخاصة منذ إنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية سنة 1795م والتي رأسها المستشرق المشهور سلفستر دي ساسي، وكان هذا

(1) انظر ترجمته بتوسع في كتاب السامرائي. السابق ذكره أعلاه، الصفحات 110-140.

(2) هذه الترجمة مختصرة من ترجمة موسعه بقلم واردنبرج نفسه قدمها للباحث.



المستشرق يعد عميد الاستشراق الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر دون منافس (1)

ويقول السامرائي عن كتاب ساسي في قواعد اللغة العربية إنه "قد لَوّن الاستشراق الأوروبي بصبغة فرنسية،" أما اهتمامات دي ساسي فقد تنوعت حيث شملت اللغة العربية وآدابها والتاريخ والفرق والجغرافيا، وهي فترة كما يقول السامرائي افتقدت إلى التخصص حيث كان المستشرق بمجرد دخوله هذا المجال يظن أنه يستطيع أن يكتب في كل ما يخص الإسلام والمسلمين، ولكن هذا النمط استمر كثيراً بعد هذه الفترة حتى يومنا هذا (2).

ونشط الاستشراق الفرنسي قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها، فقد اصطحب نابليون معه عدداً كبيراً من العلماء في المجالات المختلفة ليحدث هزة انبهار لدى المسلمين وعلمائهم بالحضارة الغربية، وليزيد في دراسة أوضاع المجتمعات الإسلامية، وقد صدر عن هذه الحملة كتاباً ضخماً بعنوان (وصف مصر) كما إن نفوذ الاستشراق الفرنسي استمر بعد وصول محمد علي سرشمة إلى السلطة حيث بدأت البعثات العلمية في عهده وكانت تحت إشراف المستشرق الفرنسي جومار، وقد أرسلت تركيا وإيران والمغرب الأقصى بعثات مماثلة، ويقول الأستاذ محمد الصباغ في كتابه عن الابتعاث ومخاطره أن السبب في أن أولى البعثات العلمية قد توجهت إلى فرنسا أنها كانت أول الدول الأوروبية التي اتخذت العلمانية منهج حياة، وإن الفساد الأخلاقي كان ينتشر فيها أكثر من غيرها من الدول الأوروبية.

ويذكر المنوني في كتابه المهم (يقظة المغرب العربي الحديث) أن المشرف على البعثة المغربية كتب إلى السلطات الفرنسية لتسمح للمبتعثين بالبقاء في فرنسا مدة من الزمن بعد انتهاء مهمتهم ليتشبعوا بالحضارة الفرنسية وعظمة فرنسا، ويقول المستشرق الإنجليزي برنارد لويس أن المعلمين الفرنسيين الذين بعثتهم فرنسا لتدريب الجيش التركي حملوا معهم كتباً مختارة في الأدب والفكر، كما إن الطلاب المبتعثين شجّعوا على قراءة كتب الأدب والثقافة.

وأنشأ الفرنسيون في العصر الحاضر الكثير من مراكز الدراسات الاستشراقية والأقسام العلمية في جامعاتهم ومنها جامعة السوربون في باريس وجامعة ليون وجامعة مارسيليا وجامعة أكس ان بروفانس وغيرها، ومن المراكز المهمة معهد دراسات المجتمعات المتوسطية، ومركز دراسات وبحوث العالم العربي والإسلامي بإكس، وتستضيف فرنسا حالياً عدداً من الباحثين

(1) قاسم السامرائي، الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية في جامعة الإمام، 1408، ص 15

(2) المرجع السابق. ص: 9.

المسلمين الذي انحرفوا عقدياً وفكرياً وتهدى لهم الفرص لبث فكرهم، ولا تكاد تفتح إحدى الصحف المهاجرة إلا وتقرأ أسماء هؤلاء كأن العالم الإسلامي لم ينجب إلا المنحرفين.

### من أعلام المستشرقين الفرنسيين

#### 1- سيلفستر دي ساسي Silvester de Sacy (1758م-1838م)

ولد في باريس عام 1758م، وتعلم اللاتينية واليونانية ثم درس على بعض القساوسة منهم القس مور والأب بارتارو، ثم درس العربية والفارسية والتركية. عمل في نشر المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الوطنية، وكتب العديد من البحوث حول العرب وآدابهم وحقق عدداً من المخطوطات.

عين أستاذاً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية عام 1795م وأعد كتاباً في النحو ترجم إلى الإنجليزية والألمانية والدنمركية، وأصبح مديراً لهذه المدرسة عام 1833م، وعندما تأسست الجمعية الآسيوية انتخب رئيساً لها عام 1822م. ومن أبرز اهتماماته "الدروز" حيث ألف كتاباً حولهم في جزأين، أصبحت فرنسا في عهده قبلة المستشرقين من جميع أنحاء القارة الأوروبية ويقول أحد الباحثين إن الاستشراق اصطبغ بالصبغة الفرنسية في عصره، عمل دي ساسي مع الحكومة الفرنسية وهو الذي ترجم البيانات التي نشرت عند احتلال الجزائر وكذلك عند احتلال مصر من قبل حملة نابليون عام 1797م<sup>(1)</sup>.

#### 2- لويس ماسنيون Louis Massingon (1883م-1962م)

ولد في باريس وحصل على دبلوم الدراسات العليا في بحث عن المغرب، كما حصل على دبلوم اللغة العربية من مدرسة اللغات الشرقية الحية (فصحي وعامية) زار كلاً من الجزائر والمغرب وفي الجزائر انعقدت الصلة بينه وبين بعض كبار المستشرقين مثل جولدزبهر وآسين بلاثيوس وسنوك هورخرونيه ولي شاتيليه.

التحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة عدة أعوام (1907م-1908م) وفي عام 1909م عاد إلى مصر وهناك حضر بعض دروس الأزهر وكان مرتدياً الزي الأزهرى، زار العديد من البلاد الإسلامية منها الحجاز والقاهرة والقدس ولبنان وتركيا، عمل معيداً في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا (1919م-1924م) وأصبح أستاذاً كرسي (1926م-1954م) ومديراً للدراسات في المدرسة العلمية العليا حتى تقاعده عام 1954م.

(1) -Said, *Orientalism*, p129.

لقد اشتهر ماسنيون باهتمامه بالتصوف الإسلامي وبخاصة بالحلاج حيث حقق ديوان الحلاج (الطواسين) وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان (آلام الحلاج شهيد التصوف) في جزأين وقد نشرت في كتاب تزيد صفحاته على ألف صفحة (ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية) وله اهتمام بالشيعية والتشيع، وعرف عن لويس صلته بالحكومة الفرنسية وتقديمه المشورة لها.

### 3- ريجيس بلاشير R.L. Blacher (1900م-1973م)

ولد في باريس وتلقى التعليم الثانوي في الدار البيضاء وتخرج باللغة العربية من كلية الآداب بالجزائر، تولى العديد من المناصب العلمية منها أستاذ اللغة العربية في معهد مولاي يوسف بالرباط، ومدير معهد الدراسات المغربية العليا (1924م-1935م)، وأستاذ كرسي الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس وأستاذاً محاضراً في السوربون ثم مدير مدرسة الدراسات العليا والعلمية، ثم أستاذ اللغة العربية وحضارته في باريس.

من أبرز إنتاجه ترجمته لمعاني القرآن الكريم وكذلك كتابه (تاريخ الأدب العربي) في جزأين وترجمه إلى العربية إبراهيم الكيلاني، وله أيضاً كتاب (أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي).

### 4- مكسيم رودنسون Maxim Rodinson 1915م.

ولد في باريس في 26 يناير 1915م، وحصل على الدكتوراه في الآداب ثم على شهادة من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية والمدرسة العلمية العليا، تولى العديد من المناصب العلمية في كل من سوريا ولبنان في المعاهد التابعة للحكومة الفرنسية هناك، تولى منصب مدير الدراسات في المدرسة العلمية للدراسات العليا قسم العلوم التاريخية واللغوية ثم محاضراً فيها قسم العلوم الاقتصادية والاجتماعية، نال العديد من الأوسمة والجوائز من الجهات العلمية الفرنسية والأوروبية.

له العديد من المؤلفات منها (الإسلام والرأسمالية) و(جاذبية الإسلام) و(محمد ﷺ) و(إسرائيل والرفض العربي)، وله العديد من الدراسات التاريخية والتاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي.

وهناك العديد من المستشرقين الفرنسيين البارزين مثل هنري لاوست وكلود كاهن وشارل بيلا وإميل درمنجهم والأب لويس جارديه والأب البلجيكي الأصل الفرنسي الجنسية الأب لامانس. وأندريه ريموند ، وروبير مانتران. وغيرهم.

## رابعا - المدرسة الإنجليزية

أنشئت أول أقسام اللغة العربية في الجامعات البريطانية في عامي 1632م و1636م في جامعتي كمبريدج وأكسفورد على التوالي، وكانت الدراسات العربية الإسلامية يغلب عليها الطابع الفردي، ولكن في هذه الأثناء كانت شركة الهند الشرقية تعمل جاهدة على إكمال احتلالها للهند ثم تسليمها للحكومة البريطانية، وقد قامت الشركة بإنشاء مراكز استشرافية في الهند لتدريب موظفين يستطيعون التعامل مع أهل البلاد. وأنشئت كذلك جمعيات استشرافية مثل الجمعية البنقالية في أواخر القرن التاسع عشر.

انتشرت المراكز الاستشرافية في بريطانيا وظلت العاصمة لندن خالية من مثل هذا المركز حتى صرح اللورد كيرزن في إحدى جلسات البرلمان الإنجليزي بضرورة إنشاء مثل هذا المركز وانه من المكونات الضرورية للإمبراطورية، وتأسست مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية عام 1916م، وانتقل إليه بعض المستشرقين الكبار من أمثال توماس آرنولد والفرد جيوم وغيرهما، واستمرت المدرسة في النمو والازدهار حتى أصبحت المركز الاستشرافي الأول في بريطانيا، بل تنافس أكبر المراكز الاستشرافية في العالم.

وكلفت الحكومة البريطانية لجنة لدراسة أوضاع الدراسات السلافية والأوروبية الشرقية والشرقية والأفريقية عام 1947م، ووضعت اللجنة تقريراً تضمن توصيات مهمة منها زيادة دعم مراكز الدراسات الاستشرافية، وتوفير الكثير من الوظائف والمنح للدارسين، وحددت اللجنة الجهات المستفيدة من هذه الدراسات وهي الحكومة البريطانية في المقام الأول، والبعثات التنصيرية، وهيئة الإذاعة البريطانية ووزارة التجارة والمؤسسات التجارية التي لها مصالح مع العالم الإسلامي.

واحتاجت الحكومة البريطانية إلى إعادة النظر في أوضاع الدراسات العربية والإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية فكلفت لجنة برئاسة سير وليام هايتر عام 1961م للقيام بهذا العمل، وقدمت مؤسسة روكفلر دعماً مالياً لهذه اللجنة لزيارة عشر جامعات أمريكية وجامعتين كنديتين للإفادة من التجربة الأمريكية في مجال الدراسات العربية الإسلامية، وقدمت اللجنة تقريرها الذي تضمن خلاصة الرحلة الأمريكية ومقابلات مع المسؤولين عن الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات البريطانية، وجاءت التوصيات من جديد لدعم هذه الدراسات والإفادة من الخبرة الأمريكية.

### من أعلام المستشرقين البريطانيين:

نقدم فيما يأتي تعريفاً بعدد من المستشرقين البريطانيين من القديم والحديث على أمل أن يتم تحديث هذه المعلومات بصورة دورية بإذن الله.

#### 1- وليام بدول William Bedwell (1516م-1632م)

عمل راعياً لكنيسة إيلبيرج وجمع إلى عمله الكنسي دراساته وبحوثه في اللغة العربية. ظهر له كتابات امتلأت بالحقد على الإسلام وهما حول الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(1)</sup>.

#### 1- جورج سيل George Sale (1697م-1736م)

ولد في لندن التحق في البداية بالتعليم اللاهوتي تعلم العربية على يد معلم من سوريا وكان يتقن اللغة العبرية أيضاً، من أبرز أعماله ترجمته لمعاني القرآن الكريم التي قدم لها بمقدمة احتوت على كثير من الافتراءات والشبهات، ومن الغريب أن يقول عنها عبد الرحمن بدوي "ترجمة سيل واضحة ومحكمة معاً، ولهذا راجت رواجاً عظيماً طوال القرن الثامن عشر إذ عنها ترجم القرآن إلى الألمانية عام 1746م" ويقول في موضع آخر "وكان سيل منصفاً للإسلام برئياً رغم تدينه المسيحي من تعصب المبشرين المسيحيين وأحكامهم السابقة الزائفة".<sup>(2)</sup>

#### 2- ديفيد صموئيل مرجليوث David Samuel Margoliouth (1858م-1940م)

بدأ حياته العلمية بدراسة اليونانية واللاتينية ثم اهتم بدراسة اللغات السامية فتعلم العربية ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه في السيرة النبوية، وكتابه عن الإسلام، وكتابه عن العلاقات بين العرب واليهود. ولكن هذه الكتابات اتسمت بالتعصب والتحيز والبعد الشديد عن الموضوعية كما وصفها عبد الرحمن بدوي، ولكن يحسب له اهتمامه بالتراث العربي كشره لكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، ورسائل أبي العلاء المعري وغير ذلك من الأبحاث<sup>(3)</sup>.

#### 3- توماس وولكر آرنولد Sir Thomas Walker Arnold (1864م-1930م)

بدأ حياته العلمية في جامعة كامبردج حيث أظهر حبه للغات فتعلم العربية وانتقل للعمل باحثاً في جامعة علي كرا (عليكرا) في الهند حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)، ثم عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة لاهور، وفي عام 1904م عاد إلى لندن ليصبح أميناً مساعداً لمكتبة إدارة الحكومة الهندية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، وعمل في الوقت نفسه أستاذاً غير متفرغ في جامعة لندن، واختير عام 1909م ليكون مشرفاً عاماً على الطلاب الهنود في بريطانيا، ومن المهام العلمية التي شارك فيها عضوية هيئة تحرير

(1)-Alastair Hamilton. *William Bedwell The Arabist(1563-1632)*.(Leiden:1985)p. 69.

(2) عبد الرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين. (بيروت: دار العلم للملايين) 1984. ص 252.

(3) المرجع نفسه ص 379.

الموسوعة الإسلامية التي صدرت في ليدن بهولندا في طبعها الأولى والتحق بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن بعد تأسيسها عام 1916م، عمل أستاذاً زائراً في الجامعة المصرية عام 1930م.

له عدة مؤلفات سوى كتابه الدعوة إلى الإسلام ومنها (الخلافة) وكتاب حول العقيدة الإسلامية وشارك في تحرير كتاب تراث الإسلام في طبعته الأولى، بالإضافة إلى العديد من البحوث في الفنون الإسلامية.

بالرغم من شهرة آرنولد بأنه من المستشرقين المعتدلين فإن البحث الدقيق في كتاباته تدل على أنه يشارك غيره من المستشرقين في الطعن في الإسلام بأسلوب هادئ وبخاصة في كتابه الخلافة وفي كتابه الدعوة إلى الإسلام كما أوضح ذلك أحد الباحثين في المعهد العالي للدعوة الإسلامية في المدينة المنورة<sup>(1)</sup>.

#### 4- سير هاملتون جيب Sir Hamilton R. A. Gibb

ولد هاملتون جيب في الإسكندرية في 2 يناير 1895م، انتقل إلى اسكتلندا وهو في الخامسة من عمره للدراسة هناك، ولكنه كان يمضي الصيف مع والدته في الإسكندرية. التحق بجامعة أدنبرة لدراسة اللغات السامية، عمل محاضراً في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام 1921م وتدرج في المناصب الأكاديمية حتى أصبح أستاذاً للغة العربية عام 1937م، وانتخب لشغل منصب كرسي اللغة العربية بجامعة أكسفورد، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد بعد أن عمل أستاذاً للغة العربية في الجامعة.

بالإضافة إلى اهتمامه اللغوي فقد أضاف إلى ذلك الاهتمام بتاريخ الإسلام وانتشاره وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال توماس آرنولد وغيره.

من أبرز إنتاج جيب (الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى) سنة 1933م ودراسات في الأدب العربي المعاصر وكتاب (الاتجاهات الحديثة في الإسلام) وشارك في تأليف (إلى أين يتجه الإسلام)، وقد انتقل جيب من دراسة اللغة والآداب والتاريخ إلى دراسة العالم الإسلامي المعاصر وهو ما التفت إليه الاستشراق الأمريكي حينما أنشأ الدراسات الإقليمية أو دراسات المناطق، وله

(1) محمود حمزة عزوني. دراسة نقدية لكتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف توماس ولكر آرنولد. بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الدعوة من المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة والترجمة مستقاة من مقالة أوريل سراين في محاضر الأكاديمية البريطانية 1930. "Proceedings of British Academy." Aurel Srien.

كتاب بعنوان (المحمدية) ثم أعاد نشره بعنوان (الإسلام) وله كتاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(1)</sup>.

#### 5- مونتجمري وات Montgomery Watt.

ولد في كريس فايف في 14 مارس 1909م، والده القسيس أندرو وات درس في كل من أكاديمية لارخ 1914م . 1919م وفي كلية جورج واتسون بإدنبرة وجامعة أدنبرة 1927م . 1930م وكلية باليول بأكسفورد 1930م-1933م وجامعة جينا بألمانيا 1933م وجامعة أكسفورد وجامعة أدنبرة في الفترة من 1938م إلى 1939م ومن 1940م إلى 1943م على التوالي، عمل راعياً لعدة كنائس في لندن وفي أدنبرة ومتخصص في الإسلام لدى القس الأنجليكاني في القدس، وبعد تقاعده عاد إلى العمل في المناصب الدينية.

عمل رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة أدنبرة في الفترة من 1947م-1979م. نال درجة الأستاذية عام 1964م. دعي للعمل أستاذاً زائراً في كل من الجامعات الآتية: جامعة تورنتو 1963م و1978م وكلية فرنسا في باريس عام 1970م وجامعة جورجيتاون بواشنطن عام 1978م-1979م.

أصدر العديد من المؤلفات من أشهرها (محمد . □ . في مكة) و(محمد في المدينة) و(محمد نبي ورجل دولة) و(الفلسفة الإسلامية والعقيدة) و(الفكر السياسي الإسلامي) و(تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى) و(الأصولية الإسلامية والتحديث) و(العلاقات الإسلامية النصرانية) ومن آخر كتبه (حقيقة الدين في عصرنا) سنة 1996م وكتاب (الفترة التكوينية للفكر الإسلامي) سنة 1998م و(موجز تاريخ الإسلام) سنة 1995م وغيرها كثير، وقد تقاعد قريباً ويعمل حالياً راعياً لإحدى الكنائس في منطقة إدنبرة<sup>(2)</sup>.

#### 6- آرثر جون آربي Arthur John Arberry (1905-1969م)

ولد في 12 مايو 1905م في مدينة بورتسموث بجنوب بريطانيا، التحق بجامعة كامبريدج لدراسة اللغات الكلاسيكية اللاتينية واليونانية، وشجعه أحد أساتذته منس على دراسة العربية والفارسية،

(1) كتب ألبرت حوراني ترجمة موسعة لهاملتون جب في كتابه : Europe And The Middle East (London: The Macmillan Press Ltd.) 1980.p 104ff

فوزي الصفحات 373وما بعدها. وقد ذكر لي البروفسور كينيث مورقان أن جامعة هارفارد أعطت جب مكانة خاصة ومنصباً تشريفياً بعد تقاعده بحيث يستطيع أن يحاضر وقتما يشاء ويقابل من يشاء من الطلاب ويشرف على البحوث التي يرغبها، وهي معاملة لا يحصل عليها إلا ذوو الحظوة والمكانة.

(2) هذه الترجمة بقلم وات نفسه أرسلها للباحث وهي نسخة من سيرة موجزة تنشر في دليل الباحثين البريطانيين، وأقوم حالياً بإعداد كتابه (حقيقة الدين في عصرنا) للترجمة والنشر

ارتحل إلى مصر لمواصلة دراسته للغة العربية، عاد إلى مصر ليعمل في كلية الآداب رئيساً لقسم الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية) وزار فلسطين وسوريا ولبنان.

اهتم بالأدب العربي فترجم مسرحية مجنون ليلى لأحمد شوقي كما حقق كتاب (التعرف إلى أهل التصوف) واصل اهتمامه بالتصوف وذلك بنشره كتاب (المواقف والمخاطبات) للنفري وترجمه إلى الإنجليزية.

عمل آربري مع وزارة الحرب البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية مهتماً بشؤون الإعلام والرقابة البريدية، وأصدر كتابه (المستشرقون البريطانيون) سنة 1943م تولى منصب أستاذ كرسي اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، ثم انتقل لجامعة كمبردج ليحتل منصب أستاذ كرسي اللغة العربية في هذه الجامعة.

ولعل من أبرز جهود آربري ترجمته لمعاني القرآن الكريم حيث أصدر أولاً مختارات من بعض آيات القرآن الكريم مع مقدمة طويلة ثم أكمل الترجمة وأصدرها عام 1955م<sup>(1)</sup>.

#### 7- برنارد لويس Bernard Lewis 1916م

ولد لويس في 31 مايو 1916م وتلقى تعليمه الأول في كلية ولسون والمدرسة المهنية حيث أكمل دراسته الثانوية ولا تذكر المراجع أية معلومات عن تلقيه تعليماً دينياً يهودياً خاصاً. التحق بجامعة لندن لدراسة التاريخ ثم انتقل إلى فرسنا للحصول على دبلوم الدراسات السامية سنة 1937م متتلماً على المستشرق الفرنسي ماسنيون وغيره. ثم عاد إلى جامعة لندن، مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية وحصل على الدكتوراه عام 1939م عن رسالته القصيرة حول أصول الإسماعيلية.

استدعي في أثناء الحرب العالمية الثانية لأداء الخدمة العسكرية وأُعيدت خدماته لوزارة الخارجية من سنة 1941م حتى 1945م، عاد بعد الحرب إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية لتدريس التاريخ الإسلامي وأصبح أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي عام 1949م ثم أصبح رئيساً لقسم التاريخ عام 1957م، وظل رئيساً لهذا القسم حتى انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1974م.

دُعِيَ للعمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات الأمريكية والأوروبية منها جامعة كولمبيا وجامعة انديانا وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس وجامعة أكلاهوما وجامعة برنستون التي انتقل إليها والعمل فيها من 1974م حتى تقاعده عام 1986م. وهنا عين مديراً مشاركاً لمعهد أنانبرج اليهودي للدراسات اليهودية والشرق أوسطية في مدينة فيلاديلفيا بولاية بنسلفانيا.

(1) عبد الرحمن بدوي ، مرجع سابق ص 5-8.



يعد لويس من أغزر المستشرقين إنتاجاً (وإن كان له قدرة على إعادة نشر بعض ما سبق نشره بصور أخرى) وقد تنوعت اهتماماته من التاريخ الإسلامي حيث كتب عن الإسماعيلية وعن الحشاشيين وعن الطوائف المختلفة في المجتمع الإسلامي، إلى الحديث عن المجتمع الإسلامي ولكنه في السنوات الأخيرة قبل تقاعده بقليل بدأ الاهتمام بقضايا العالم العربي والإسلامي المعاصرة فكتب عن الحركات الإسلامية (الأصولية) وعن الإسلام والديموقراطية. قدم خدماته واستشاراته لكل من الحكومة البريطانية التي كلفته القيام برحلة إلى العديد من الجامعات الأمريكية وإلقاء الأحاديث الإذاعية والتلفازية عام 1954م، كما قدم استشارته للكونجرس الأمريكي أكثر من مرة. وفي إحدى المرات (8 مارس 1974م) ألقى محاضرة في أعضاء لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكي حول قضية الشرق الأوسط ولأهمية هذه المحاضرة نشرتها وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد أسبوعين من إلقائها<sup>(1)</sup>.

#### خامسا - المدرسة الأمريكية

نشأ الاستشراق في أوائل القرن التاسع عشر يغلب عليه الطابع الديني، ولكن مع عدم إغفال الأطماع السياسية، فكيف يكون لبريطانيا إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ولا يكون لأمريكا اهتمامات إمبريالية، واشترك الهدفان وتأسست الجمعية الشرقية عام 1840م وأرسلت باحثيها إلى العالم العربي الإسلامي، وحرصت بعض الجامعات الأمريكية أن تنال نصيبها من المخطوطات الإسلامية فاشترت جامعة برنستون Princeton كمية من المخطوطات حتى أصبحت تضم ثاني أكبر مجموعة مخطوطات إسلامية.

ونشطت البعثات التنصيرية في بلاد الشام فأُسست المدارس والمعاهد العلمية، وفي أواخر القرن التاسع عشر وفي عام 1889م (1307هـ) وصلت إلى البصرة طلائع البعثة العربية (سميت كذلك تمويها) وكانت برئاسة المنصّر المشهور صموئيل زويمر، واستمرت هذه البعثة حتى عام 1393م-1973م

وشهد الاستشراق الأمريكي نهضة شاملة بعد منتصف القرن العشرين حينما أخذت بريطانيا مواقعها للنفوذ الأمريكي كما ذكر ذلك مايلز كوبلاند في كتابه (لعبة الأمم)، ووجد الأمريكيون أنهم بحاجة إلى عدد كبير من المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط، فأصدرت الحكومة الأمريكية مرسوما عام 1952م خصص بموجبه مبالغ كبيرة لتشجيع الجامعات على

(1) نقلاً عن رسالة الدكتوراه التي أعدها الباحث بعنوان منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، ونشرت لدي مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض عام 1416هـ بعنوان : الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، ص 69 وما بعدها. C. E. Bosworth, et al.(ed.) *The Islamic World From Classical To Modern Times*. (Princeton,1989)p. IX-X and Also Who's Who in the USA 1989.

افتتاح أقسام الدراسات العربية الإسلامية، واستقدم لذلك خبراء في هذا المجال من الجامعات الأوروبية، وحضر من بريطانيا كل من جوستاف فون جرونباوم وهاملتون جب وبرنارد لويس وغيرهم، فأسس هاملتون جب مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد وجرونباوم أسس مركزاً في جامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس.

وقد طوّرت الدراسات العربية الإسلامية في الولايات المتحدة لتأخذ مفهوماً جديداً وشكلاً جديداً فقد انتهى إلى حد كبير عهد المستشرق الذي يزعم لنفسه معرفة كل ما يخص العالم العربي الإسلامي في جميع المجالات، فأخذت الدراسات تصبح أكثر دقة وتخصصاً في منطقة معينة وفي فرع من فروع المعرفة، وقد فتح هذا التجديد المجال أمام التخصصات المختلفة لتسهم في تطور الدراسات العربية الإسلامية بحيث تكون بعض الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراه تحت إشراف أكثر من قسم علمي.

وكما ذكر عن الاستشراقين الهولندي والألماني بوجود أصوات معتدلة فإنه ظهر في الولايات المتحدة عدد من الباحثين ينادون بوقف التشويه المتعمد لصورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الأمريكي أو في الكتابات الأكاديمية ومن هؤلاء مثلاً اسبوزيتو، كما يلاحظ أن بعض من يتعاطف مع العالم الإسلامي أدرك خطئ الإسراف الأمريكي في تأييد المصالح اليهودية وتقديمها حتى على مصالح الولايات المتحدة، ومع تقديرنا لكل من يتحدث عن الإسلام بإيجابية فينبغي أن نظل على حذر، كما إنه يتوجب على المسلمين أن يحرصوا على أن يكون لهم وجود في خارطة الإعلام الغربي.

#### من أعلام الاستشراق الأمريكي:

#### 1- كرنيلْيوس فانديك Cornilius Van Dyke

درس العربية في لبنان، أسهم في إنشاء مدرسة كانت نواة الجامعة الأمريكية، شارك في تكملة ترجمة التوراة إلى اللغة العربية، وله كتابات في المجال العلمي.

#### 2- دنكان بلاك ماكدونالد Dunckan Black MacDonald (1863م-1943م)

أصله إنجليزي بدأ الدراسة في جلاسجو (اسكتلندا) وانتقل إلى برلين للدراسة مع المستشرق زاخاو، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1893م لتعليم اللغات السامية، أسس في الولايات المتحدة مدرسة كندي للبعثات عام 1911م وشارك مع زويمر في السنة نفسها في تأسيس مجلة العالم الإسلامي، تنوع إنتاجه بين الدراسات الشرعية والدراسات اللغوية.

#### 3- جورج سارتون George Sarton (1884م-1956م).

بلجيكي الأصل متخصص في العلوم الطبيعية والرياضية درس العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت 1931م-1932م، ألقى محاضرات حول فضل العرب على الفكر الإنساني، أشرف مع ماكدونالد على مجلة إيزيس 1913م-1946م وأبرز إنتاجه (المدخل إلى تاريخ العلم).

#### 4- جوستاف فون جرونباوم Gustav Von Grunbaum (1909م-1972م)

ولد في فيينا في 1/9/1909م، درس في جامعة فيينا وفي جامعة برلين، هاجر إلى الولايات المتحدة والتحق بجامعة نيويورك عام 1938م، ثم جامعة شيكاغو ثم استقر به المقام في جامعة كاليفورنيا حيث أسهم في تأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط الذي أطلق عليه اسمه فيما بعد، من أهم كتبه الإسلام في العصر الوسيط، كما اهتم بدراسة الأدب العربي وله إنتاج غزير في هذا المجال.

#### 5- جورج رنتز George Rentz

درس في واشنطن وفي جامعة الفلبين وجامعة كاليفورنيا تخصص في اللغة العربية وآدابها، عمل في السفارة الأمريكية في القاهرة، أسس قسم البحوث والترجمة في شركة أرامكو، شارك في مشروع التاريخ الشفوي لمنطقة الخليج العربي، عمل أميناً لمجموعة الشرق الأوسط في جامعة ستانفورد، من أبرز اهتماماته حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حيث كانت موضوع رسالته للدكتوراه، وله كتابات كثيرة عن الجزيرة العربية من النواحي التاريخية والجغرافية، توفي منذ عدة سنوات.

#### 6. ويلفرد كانتويل سميث Wilfred Cantwell Smith

ولد في كندا عام 1916م، درس اللغات الشرقية في جامعة تورنتو، حصل على الماجستير والدكتوراه في مجال دراسات الشرق الأدنى من جامعة برنستون، متخصص في دراسة الإسلام وأوضاع العالم الإسلامي المعاصرة وأشهر كتبه في هذا المجال (الإسلام في العصر الحديث) عمل أستاذاً في جامعة هارفرد وفي معهد الدراسات الإسلامية بجامعة مكغيل بكندا، قام بتدريس الدين الإسلامي بكلية نورمان المسيحية بمدينة لاهور بباكستان 1941م-1945م، دعي للعمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات، صدر له حديثاً (1998م) عدة كتب منها (نماذج الإيمان حول العالم) وكتاب (الإيمان نظرة تاريخية) وكتاب (الإيمان والاعتقاد والفرق بينهما)<sup>(1)</sup>.

#### 7. باربرا ريجينا فراير ستواسر Barbara Regina Fryer Stowasser<sup>(2)</sup>

(1) انظر كتاب الأستاذ محمد قطب المستشرقون والإسلام. (القاهرة: دار وهبة، 1999م) ص 226 - ص 256

(2) الترجمة بقلم البروفيسورة ستواسر نفسها قدمتها للباحث.

ولدت في ألمانيا حيث تلقت تعليمها الأولي ثم حصلت على الشهادة الجامعية من جامعة أنقرة في دراسة اللغة التركية العثمانية والحديث واللغة الفارسية والعربية والتصوف، حصلت على الماجستير من جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس في تاريخ الشرق الأوسط وحضارته، حصلت على الدكتوراه من جامعة منستر Munster بألمانيا في الدراسات الإسلامية.

تولت العديد من المناصب منها أستاذة مساعدة بقسم اللغة العربية في جامعة جورج تاون بواشنطن العاصمة. ثم عينت مديرة لمركز الدراسات العربية المعاصرة بالجامعة نفسها في الفترة من 1993 حتى الآن، لها العديد من المؤلفات منها (النساء في القرآن وفي الحديث وفي التفسير) و(التطور الديني والسياسي، بعض الأفكار حول ابن خلدون وميكافيللي) وعدد كبير من البحوث حول الدراسات الإسلامية وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة في الإسلام قديماً وحديثاً.

عضو مؤسس في المجلس الأمريكي لجمعيات الدراسات الإسلامية، وعضو في الجمعية الاستشراقية الأمريكية وعضو الرابطة الأمريكية لمعلمي اللغة العربية.

8 . ريتشارد بوليت Richard Bulliet<sup>(1)</sup> :

درس في جامعة هارفرد حيث حصل على البكالوريوس في التاريخ 1962م والماجستير 1964م في دراسات الشرق الأوسط والدكتوراه 1967م في التاريخ ودراسات الشرق الأوسط، عمل في العديد من الجامعات منها هارفارد وجامعة بيركلي في كاليفورنيا وجامعة كولومبيا حيث ترأس معهد الشرق الأوسط في الفترة من 1984م إلى 1990م والفترة من 1993م حتى الآن، تولى مناصب علمية في عدد من المؤسسات منها رابطة دراسات الشرق الأوسط سكرتير تنفيذي 1977م-1981م، عضو مجلس إدارة جمعية الدراسات الإيرانية، وعضو مجلس أمناء المعهد الأمريكي للدراسات الإيرانية، قَدّم خدمات استشارية للعديد من الجهات العلمية والسياسية منها وكالة إعلام الولايات المتحدة التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، ووزارة الخارجية الأمريكية ومجلة التايم وغيرها.

له العديد من المؤلفات منها دراسة في تاريخ الإسلام الاجتماعي في القرون الوسطى، والتحول إلى الإسلام في القرون الوسطى، وكتاب الإسلام نظرة من الخارج. له مشاركات إعلامية في الصحافة والإذاعة والتلفاز.

#### سادس - المدرسة الألمانية

اهتم الباحثون الألمان بالدراسات العربية الإسلامية منذ عهد مبكر فقد ثبت أن مارتن لوتر كان من الذين تأثروا بالفكر الإسلامي حينما تمرد على الكنيسة الكاثوليكية في روما، ولكن

(1) ترجمة ذاتية بقلم بوليت نفسه قدمها للباحث.

موقف لوثر كان عدائياً جداً من الإسلام وبخاصة الدولة العثمانية. وقد تميز المستشرقون الألمان بالجدية في البحث حتى اصطبغت الدراسات الإسلامية في أوروبا في وقت من الأوقات بالصبغة الألمانية. ويقول في ذلك الدكتور السامرائي "ومع كل هذا فإن المدرسة الألمانية وحدها أظهرت اهتماماً علمياً جاداً بالإسلام في وقت مبكر عن غيرها من المدارس الاستشراقية الأوروبية<sup>(1)</sup>، وذكر أمثلة على هذا الاهتمام بالمخطوطات والتاريخ الإسلامي حيث ظهر كتاب مغازي الواقدي وبدأ تحقيق كتاب الطبري، وظهرت جهود بروكلمان في كتابه "تاريخ الأدب العربي".

وما زال الاستشراق الألماني مزدهراً في العديد من الجامعات، وقد لحق الاستشراق الألماني غيره في الاهتمام بالقضايا المعاصرة فقد قدم المستشرق راينهارد شولتز محاضرة في شهر سبتمبر 1986 في جامعة برنستون بالولايات المتحدة بعنوان "الإسلام السياسي في القرن العشرين".

#### من أعلام الاستشراق الألماني:

#### 1. يوهان جاكوب رايسكه Johann Jakob Reiske (1774-1716)

يعد رايسكه مؤسس الدراسات العربية في ألمانيا حيث بدأ تعليم نفسه العربية ثم درس في جامعة ليبزغ Leipzig وانتقل إلى جامعة ليدن لدراسة المخطوطات العربية فيها كما اهتم بدراسة اللغة العربية والحضارة الإسلامية وإن كان له فضل في هذا المجال فهو الابتعاد بالدراسات العربية الإسلامية عن الارتباط بالدراسات اللاهوتية التي كانت تميز هذه الدراسات في القرون الوسطى (الأوروبية).

#### 2. يوليوس فيلهاوزن Jullius Wellhausen (1918-1844)

تخصص في دراسة التاريخ الإسلامي والفرق الإسلامية، من أبرز إنتاجه تحقيق تاريخ الطبري، وألف كتاباً بعنوان "الإمبراطورية العربية وسقوطها" ومن اهتماماته بالفرق الإسلامية تأليف كتابيه "الأحزاب المعارضة في الإسلام" وكتابه "الخوارج والشيعة" وكتب عن الرسول ﷺ في كتابه "تنظيم محمد للجماعة في المدينة" وكتابه "محمد والسفارات التي وجهت إليه".

#### 3. ثيودور نولدكه Theodor Noldeke (1930-1836)

ولد في هامبرج في 2 مارس 1836 ودرس فيها اللغة العربية ودرس في جامعة ليبزغ وفيينا وليدن وبرلين. عين أستاذاً للغات الإسلامية والتاريخ الإسلامي في جامعة توبنجن، وعمل أيضاً في جامعة ستراسبورج. اهتم بالشعر والجاهلي بقواعد اللغة العربية وأصدر كتاباً بعنوان "مختارات من

(1) الفهرس الوصفي: ص: 17.

الشعر العربي' من أهم مؤلفاته كتابه 'تاريخ القرآن' نشره عام 1860 وهو رسالته للدكتوراه وفيه تناول ترتيب سور القرآن الكريم وحاول أن يجعل لها ترتيباً ابتدعه. ذكر عبد الرحمن بدوي أن نولدكه يعد شيخ المستشرقين الألمان.

#### 4. كارل بروكلمان Carl Brockelmann (1868-1956)

ولد في 17 سبتمبر 1868 في مدينة روستوك، بدأ دراسة اللغة العربية وهو في المرحلة الثانوية، ودرس في الجامعة بالإضافة إلى اللغات الشرقية اللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) ودرس على يدي المستشرق نولدكه. اهتم بدراسة التاريخ الإسلامي وله في هذا المجال كتاب مشهور 'تاريخ الشعوب الإسلامية' ولكنه مليء بالمغالطات والافتراءات على الإسلام<sup>(1)</sup>.

ومن أشهر مؤلفاته كتاب 'تاريخ الأدب العربي' الذي ترجم في ستة مجلدات وفيه رصد لما كتب في اللغة العربية في العلوم المختلفة من مخطوطات ووصفها ومكان وجودها.

#### 5. جوزف شاخت Josef Schacht (1902-1969)

ولد في 15 مارس 1902، درس اللغات الشرقية في جامعة برسلاو وليبتسك، انتدب للعمل في الجامعة المصرية عام 1934 لتدريس مادة فقه اللغة العربية واللغة السريانية. شارك في هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية في طبعها الثانية. عرف شاخت باهتمامه بالفقه الإسلامي ولكنه صاحب إنتاج في مجال المخطوطات وفي علم الكلام وفي تاريخ العلوم والفلسفة.

#### 6. آنا ماري شميل Annemarie Schimmel (1922)

من أشهر المستشرقين الألمان المعاصرين بدأت دراسة اللغة العربية في سن الخامسة عشرة وتتنقن العديد من لغات المسلمين وهي التركية والفارسية والأوردو. درست في العديد من الجامعات في ألمانيا وفي الولايات المتحدة الأمريكية وفي أنقرة، اهتمت بدراسة الإسلام وحاولت تقديم هذه المعرفة بأسلوب علمي موضوعي لبني قومها حتى نالت أسمى جائزة ينالها كاتب في ألمانيا تسمى جائزة السلام. ولكن بعض الجهات المعادية للإسلام لم يرقها أن تنال هذه الباحثة المدافعة عن الإسلام في وجه الهجمات الغربية عليه حاولوا أن يمنعوا حصولها على الجائزة.

وقد أدرك مكانة هذه المستشركة العالمة والداعية المسلم في أوروبا الدكتور زكي علي منذ أكثر من أربعين سنة حين كتب يقول "وعلى رأس المحررين لمجلة 'فكر وفن' الأستاذة الألمعية الدكتورة آن ماري شميل المتخصصة في دراسة محمد إقبال حكيم وشاعر باكستان.. وترجمت

(1) انظر كتاب. عبد الكريم علي باز. افتراءات فيليب حتى وكار بروكلمان على التاريخ الإسلامي. (جدة:تهامة للنشر، 1403-

إلى الألمانية له ديوان 'جاويد نامة' وكتاب 'رسالة المشرق عن الفارسية' وهي أستاذة بجامعة بون وغيرها ومن أكابر علماء ألمانيا... وتنصف الإسلام والمسلمين كثيراً جزاها الله خيراً." وقال عنها أيضاً أنها أصدرت العديد من الكتب منها كتاب 'محمد رسول الله' □ بسطت فيه مظاهر تعظيم وإجلال المسلمين لرسول الله ﷺ<sup>(1)</sup>. وقد امتدحها رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا بأنها ما زالت تواصل كتاباتها الموضوعية وترجماتها عن الإسلام<sup>(2)</sup>.

### سابعاً - المدرسة الإسبانية

نشأ الاستشراق الإسباني في أحضان حركة عدائية لكل ما هو عربي ومسلم، وكان هدفها التحقير والانتقام والتشويه، وقد وصف المستعرب الإسباني خوان غويتسولو في كتابه (في الاستشراق الإسباني)<sup>(3)</sup> نماذجاً من هذا النوع حين يكتبون عن الإسلام والمسلمين بقوله إنهم "إنما يكتبون ويتصرفون وينطقون باسم المسيحية في مواجهة حضارة متدنية، وفي أفضل الأحوال، فإن استحضار الماضي المجيد الذي عرفه العالم الإسلامي يدفعهم إلى التفجع على نحو متحذلق على الانحطاط الحالي (انحطاطا كان في رأيهم محتما ولا مناص منه) وعلى عجزه الطبيعي عن هضم التقدم الأوروبي" ووصف غويتسولو دراسات المستشرقين الأسبان للغات الإسلامية بأنهم يدرسونها كما لو كانت "لغات حضارات منقرضة، ومقطوعة عن اللغات الحالية التي هي وريثها الشرعي، حاكمين عليها بذلك بأن تشكل عدماً أو ما هو أقل من العدم". واختلط الدافع الديني الحاقد بدافع استعماري سياسي حينما بدأت حركات الاحتلال الأوروبي للعالم الإسلامي وطمعت إسبانيا في المناطق المجاورة لها فجدت مستشرقين لإعداد الدراسات لمعرفة مواصفات السكان وطبائعهم وتجاريتهم وزراعتهم، وكذلك معرفة اللغات واللهجات المحلية، وقد أنشأت الحكومة الإسبانية العديد من المراكز لتعليم العربية العامية والمغربية، وقد تجاوزت خمسين مدرسة .

وما تزال إسبانيا تحتفظ بالكثير من المخطوطات العربية في مكباتها الكبرى كمكتبة الاسكوريال ومكتبة مدريد الوطنية، ومكتبة جمعية الأبحاث الوطنية.

### من أعلام الاستشراق الإسباني:

#### 1. مقيل آسين بلاثيوس Miguel Asin Placios (1871م-1944م)

(1) عبد اللطيف الجوهري. من أعلام الدعاة في أوروبا: العلامة الدكتور زكي علي. (جدة: عالم المعرفة 1418-1988) ص123 والمقالة التي كتبها الدكتور زكي علي نشرت في مجلة البريد الإسلامي في 1963/6/25. ولما رشحت لنيل جائزة السلام ظهرت أصوات يهودية ومعادية للإسلام والمسلمين تتهم المستشركة بشتى الاتهامات، وقد توفت قريباً وكتب عنها الشيخ أحمد زكي يماني وهو يرى أنها أسلمت ولكنها كانت تخفي إسلامها.

(2) عكاظ، عدد 10961، ربيع الآخر 1417، (16 أغسطس 1996م)

(3) خوان غويتسولو: في الاستشراق الإسباني. ترجمة كاضم جهاد (بيروت، 1987م) ص165.

ولد في 5 يوليو 1871م بمدينة سرقسطة والتحق بكلية الآداب بجامعة سرقسطة بالإضافة إلى دراسته في المعهد المجمعي فتخرج فيه قسيساً، درس اللغة العربية على يد المستشرق ريبيرا، التحق بجامعة مدريد للحصول على درجة الدكتوراه وكانت عن الغزالي، تولى كرسي اللغة العربية في جامعة مدريد، من أبرز إنتاجه العلمي بحثه المعنون (الرشدية اللاهوتية في مذهب القديس توما الإكويني) وبحثه عن تأثر الشاعر الإيطالي دانتي بعنوان (الأخويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية)، وأبدى اهتماماً بآبن حزم والقرطبي وأبي حامد الغزالي، ومحي الدين بن عربي.

شارك مع المستشرق ريبيرا في إصدار مجلة الثقافة الإسبانية 1906م-1909م واختير عضواً في الأكاديمية الملكية للعلوم الأخلاقية سنة 1912م وعيّن عضواً في الأكاديمية الإسبانية عام 1919م.

### 1- سيكودي لوثينا باريديس Secode Lucena Paredes

ولد في غرناطة ودرس الفلسفة في كلية الآداب في جامعة غرناطة، عمل مستشاراً للثقافة والتعليم في الإقامة الإسبانية في المغرب، عيّن أستاذاً للغة العربية بجامعة غرناطة عام 1942م، عيّن مديراً لمعهد الدراسات العربية بغرناطة وعمل رئيساً لقسم الدراسات العربية في معهد الدراسات الإفريقية بمدريد، انتخب عضواً في مجمع الفنون الجميلة، له إنتاج غزير في مجال تحقيق المخطوطات وفي البحوث حول الشريعة الإسلامية وكذلك التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية

### 2 . إميليو جارتيا جوميز Emilio Varcia Gomez

ولد في مدريد ودرس في جامعتها، عمل أستاذاً بجامعة غرناطة وجامعة مدريد. تولى إدارة المعهد الثقافي الإسباني، زار سوريا ولبنان، انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام 1948م، عمل سفيراً لبلاده في بغداد وفي لبنان، له دراسات عديدة في الأدب العربي وترجمات لبعض الشعر العربي إلى الإسبانية.

### 3 . بوش فيلا Bosch Villa

ولد في فيجراس عام 1922م، درس في جامعة برشلونه فقه اللغات السامية وحصل على الدكتوراه من جامعة مدريد بعنوان (الإقطاع، مملكة الطوائف على عهد بنو رزين) عمل في تدريس اللغة العربية في كل من جامعتي برشلونه وجامعة سرقسطة، تولى منصب أستاذ مساعد للتاريخ والنظم الإسلامية بجامعة مدريد وعمل أمين مكتبة معهد الدراسات العربية بمدريد ودرّس التاريخ والنظم الإسلامية بجامعة غرناطة.



تولى رئاسة الجمعية الإسبانية للمستشرقين، وهو عضو جمعية شمال أمريكا لدراسات الشرق الأوسط، تركزت بحوثه في مجال الدراسات الإسلامية والجغرافيا والتاريخ كما اهتم بقضايا العالم العربي المعاصرة.

#### 4. فيديريكو كورينتي Fedrico Coriente

ولد في غرناطة في 14/11/1940م درس اللغات الشرقية في جامعة مدريد، حصل على الدكتوراه في علم اللغة، عمل مديراً للمركز الثقافي في القاهرة 1962م-1965م، تولى منصب أستاذ اللغة الإسبانية في مدرسة الألسن العليا بجامعة عين شمس في الفترة نفسها، وترأس قسم اللغة الإسبانية بجامعة محمد الخامس بالرباط عام 1965م-1968م، عمل في جامعة فيلاديلفيا أستاذاً للغات الشرقية والعربية، أستاذ كرسي اللغة العربية بجامعة سرقسطة منذ عام 1976م.

#### ثامنا - المدرسة الروسية

كان الاستشراق قوياً في روسيا منذ عهد بعيد حيث تعود الصلات بين روسيا والعالم الإسلامي إلى زمن الدولة العباسية، حيث تبادلت الدولة الإسلامية السفارات مع روسيا، ولما ضمت روسيا إليها بعض المناطق الإسلامية ازداد الاهتمام بالإسلام والعالم الإسلامي، وقد أفادت روسيا من الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا وبخاصة في فرنسا حيث أوفدت روسيا بعض الباحثين للدراسة في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس. وقد قوي الاهتمام بالاستشراق في روسيا في بداية القرن التاسع عشر حينما أنشأت بعض الجامعات الروسية كراساً للغة العربية والإسلام ومن هذه الجامعات جامعة قازان وجامعة موسكو وجامعة بطرسبرج وكلية لازاريف وغيرها.

#### بعض أعلام الاستشراق الروسي:

##### 1- ف.ف. بارتولد V.V. Barthold ء (1869م-1930م)

درس التاريخ الإسلامي في جامعة بطرسبرج وعمل فيها أستاذاً لتاريخ الشرق الإسلامي، اهتم بمصادر التاريخ الإسلامي العربية، كما اهتم بدراسة ابن خلدون ونظريته في الحكم. انتخب عضواً في مجمع العلوم الروسي ورئيساً للجنة المستشرقين، له كتابات كثيرة في مجال التاريخ الإسلامي وقد كتب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

##### 2- إجناطيوس كراتشكوفسكي Ignaij Julianovic Krackovskij<sup>(1)</sup>

(1) انظر ترجمه له بقلم أنا دولينينا. " إجناطيوس كراتشكوفسكي : من تاريخ الاستشراق في الاتحاد السوفيتي. في الاستشراق. سلسلة كتب الثقافة المقارنة) العدد 2 شباط 1987. ص56-59.

ولد في 16 مارس 1883م، أمضى طفولته في طشقند حيث تعلم اللغة الأوزبكية، درس اللغات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية، بدأ بتعلم اللغة العربية بنفسه. وفي عام 1901م التحق بكلية اللغات الشرقية في جامعة سان بترسبرج، ودرس عدداً من اللغات منها العبرية والحبشية والتركية والفارسية، درس التاريخ الإسلامي على يد المستشرق بارتولد، زار العديد من الدول العربية والإسلامية منها تركيا وسوريا ولبنان ومصر وتعرف إلى كثير من أعلام الفكر العربي الإسلامي منهم الشيخ محمد عبده والشيخ محمد كرد علي وغيرهما اهتم بالشعر العربي في العصر الأموي وفي العصر العباسي.

### 3- و. إيفانوف W. Ivanov (1886م-1970م)

اهتم بدراسة الإسماعيلية، ومن آثاره المخطوطات الإسلامية في المتحف الآسيوي، وثائق جديدة لدراسة الحجاج وعقيدة الفاطميين.

### 4- كريمسكي A.E. Krymsky (1871م-1941م)

درس في جامعة موسكو في الفترة من 1892م إلى 1896م اللغات السلافية والعربية والفارسية. عاش في سوريا في الفترة من 1896م إلى 1898م، عمل أستاذاً للعربية وآدابها في كلية لازاريف، وأستاذاً للعربية في قازان من 1898م إلى 1918م. تولى منصب سكرتير مجمع العلوم الأوكراني. وترأس قسم الدراسات العليا في خاكوف بعد الثورة البلشفية 1917م. من آثاره (العالم الإسلامي ومستقبله، 1889م)، (تاريخ الإسلام في جزأين 1904م) و(الأدب العربي الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، موسكو 1906م)

### 5- شميت A.E. Schmidt (1871م-1941م)

تلقى تعليمه على يد المستشرقين روزين وجولدزبهر، تخصص في دراسة اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، عمل أستاذاً في جامعة بطرسبرج مدة عشرين سنة، ثم انتقل إلى طشقند عام 1920م ليؤسس جامعة فيها وكان أول رئيس لها، من آثاره (تاريخ الإسلام) و(النبي محمد ﷺ) و(محاولة التقريب بين السنة والشيعة، (فهرس المخطوطات العربية في طشقند).

## قصة المستشرقين مع القرآن الكريم

إن قصة المستشرقين مع كتاب الله الكريم ((القرآن)) لا تعدو أن تكون إلا فصلا من فصول أسطورة الصراع الحضاري في خلفياته المتجدرة في أساليب تعاملهم مع المسلمين في سياساتهم وثقافتهم وتراثهم وغيرها من مجالات البنية الجيوسياسية في المنظومة الحضارية للشعوب.

إن هذا القرآن الموحى به من الله والذي نزل به جبريل عليه السلام على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم المبعوث للعالمين والمتعبد بتلاوته. شكل مصدر قلق حضاري للكهنوت والعسكروت الغربيين على حد سواء وهذا نلاحظه من خلال ما تكشف إثر تصريحاتهم، وما فلت من أقوالهم.

ف نجد القسيس المتعصب ضد الإسلام والمسلمين [وليم جيفورد بالكراف] يقول: ((متى توارى القرآن، ومدينة مكة من بلاد العرب، أمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعد عنها إلا محمد وكتابه)).

ويقول المستشرق الفرنسي [بلاشير]: ((قلما وجدنا كتابا من بين الكتب الدينية عند الشرقيين (الديانات الشرقية) كتابا واحدا بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن)).

ويقول الكاردينال الفرنسي [لافيجري] مبديا ملامح هذا القلق إزاء كتاب محمد الذي بات يهدد حضارة الرذيلة والاستغلال في الجزائر ودوره في عرقلة أغراضهم الاستعمارية في بلاد الإسلام، وليس هذا فحسب في شأن هذا الجندي المنصر، بل هو مهندس برنامج التنصير في الجزائر عام 1867م يقول: ((إنه يجب أن نجعل من الأمة الجزائرية مهذا لأمة مسيحية كريمة، وأن نضئ أرجاءها بنور مدينة وحيها الإنجيل، وأن نربط مصير أفريقيا بحياة الشعوب المسيحية .. تلك هي رسالتنا..

إننا لن نتنصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم)).

إن أهم مؤسسة مبكرة في الدراسات الإسلامية، العربية هي تلك المؤسسة التي أنشأها كبير الأساقفة [رايموند الأول] سنة 1126 [Raymond 1] وكان ذلك في مدينة طليطلة بأسبانيا في عهد الملك الفرنسي السابع وكانت تلك المؤسسة نواة لمعهد الدراسات الشرقية الذي أنشأه رايموند الأول، والذي خلفه من بعده اليهودي الذي تنصر [جون بن داود Juan Aben doud] فغدا هذا المعهد قبلة لطلاب العلم من جميع البلدان الأوربية، يفدون إليه لدراسة الثقافة العربية و الإسلامية.

ويعتبر المؤرخون هذا المعهد هو المؤثر الفعال في عالم الحضارة الأوربية، فقد تم فيه نقل التراث الفكري الذي أثر وما زال يؤثر في الغرب لقرون طويلة، ففي عهده تم نقل كتب ابن سينا [Avicenna] [وابن رشد، وشروحه Avierroes] والسياسة لأرسطو سنة خمس وثلاثين ومائة وألف (1135) والجبر للخوارزمي، وكتاب القبيسي في النجوم وأبعاد الكواكب وغيرها من كتب التراث الإسلامي المجيد.

## المستشرقون وترجمتهم للقرآن الكريم:

حري بنا أن نتساءل، لماذا ترجم المستشرقون القرآن الكريم؛ أو بالأحرى المفكرون الغربيون؟ لقد بدأ الغربيون دراسة اللغة العربية في أديرة الرهبان، وكان أول وأهم عمل هائل في مجال الترجمة من العربية خصصوا له الوقت والجهد هو القرآن الكريم، فشرعوا في ترجمته لا للاطلاع عليه والاستفادة منه فحسب كما يمكن أن، يتصور الإنسان، بل لمحاربه بعد الوقوف على مضمونه، وقد عبر الدكتور [محمد البهي] عن هذا الواقع بقوله: ((إن الاستشراق كمنهج وكمحاولة فكرية لفهم الإسلام حضارةً وعقيدةً وتراثاً كان دافعه الأصلي العمل من أجل إنكار المقومات الثقافية والروحية في ماضي هذه الأمة والتنديد والاستخفاف بها)).

يظهر لنا على ما تتركز عليه الدراسات التاريخية، أن القرآن الكريم قد عرف منذ قرون طويلة في بلاد الغرب، وإن محاولات كثيرة قد جرت لترجمته منذ القرن الثامن الميلادي.

لقد تعرضت بعض نصوص القرآن للترجمة منذ قرون خلت إلا أن أول محاولة لترجمة القرآن الكريم كاملاً، التي قام بها [بطرس المبجل Peter the venerable] الذي عين رئيساً لشمامسة ذيركلوني في مدينة طليطلة سنة 1123 [Abbot of Clunny] الذي أصبح مركزاً خطيراً لدراسة الثقافة العربية والإسلامية ومحاولة النيل منها. وقد انطلقت حركة إصلاح نصرانية عمت أوروبا كلها خاصة بعد أن جلب (بطرس) إلى هذا الدين الرهبان المتعصبين ضد الإسلام. ولقد قضى بطرس نفسه فترة طويلة في دراسة العلوم الإسلامية والعربية ثم مضى ينظم الحملات الضارية ضد الإسلام والمسلمين، وقد كانت أخطر الأفكار التي قام بتنفيذها بمعاونة وإشارة البابا هي ترجمة القرآن الكريم، فألف لجنة ثلاثية لوضع ترجمة لاتينية كاملة ((للكتاب الذي يجعله المسلمون المغاربة)).

وهذه اللجنة التي تكونت من الراهب الإنجليزي [روبرت أوف تشيستر Robeert Rétenensis of Chester] من بلدة ((كيتون)) ولكنه ينسب [لتشيستر] لتلقيه العلم هناك، ودخل الرهبانية البندكتية، وقصد الأندلس وعين أسقفاً على [بامبلوتة] سنة 1143م وتثقف بالثقافة العربية ولا سيما الرياضية والفلكية، واختير مستشاراً لصقلية، واشترك مع زميله [هرمان الدماطي] في ترجمة العلوم كما جاء في خطاب بطرس المكرم إلى القديس [برنار]: ((قابلت روبرت وصديقه هرمان الدماطي عام 1141م بالقرب من [الإبرو] بأسبانيا وقد صرفتهما عن علم الفلك إلى ترجمة القرآن باللاتينية فأتماه عام 1143م)).

وقد عين [هرمان الدماطي] رئيساً لشمامسة سربايلونا، ثم راعياً لكنيسة شيتي ثم اسقفاً على أستورجة، وقد استعانا باثنين من العرب في ترجمتهما هذه للقرآن الكريم والتي بدأت سنة 1141م وتمت كاملة سنة 1143م (أي في ق 6هـ) وذلك تحت الرعاية الكاملة والإشراف التام للأب ((بطرس)).

الرئيس الأعلى بديركلوني بمدينة طليطلة بأسبانيا. ولقد أتفق على لجنة الترجمة البابا برنار وبطرس أموالا طائلة، وكانت هذه الترجمة عبارة عن أقوال مفككة ملقاة على عواهنها وليس فيها ظل من التحقيق العلمي. لقد خلت هذه الترجمة تماما من الأمانة العلمية، وامتألت بالتزيف والتحريف واتسمت بحرية التصرف، وكثرت فيها الأخطاء وتعددت فيها مواضع الإضافة والحذف ولم يبق بعد هذا النقل النشوبه إلا قليل من الشبه للأصل القرآني.

يقول [ريجي بلاشي]ر المستشرق الفرنسي: ((إنها لم تكن بوجه من الوجوه ترجمة أمينة وكاملة للنص)) مقدمة كتابه((القرآن)).

ويقول آربري في مقدمته يؤكد ما ذكرناه: [ It abounds in inaccuracies and

msunderstandings, and was inspired by hostile intention ; nevertheless it served as the foundatio of the earliest translatis into modem .

europeon

idioms Arther .J Arberry.((The Koran interpreted.P.7)).

وذكر شيئا مهما حين قال: ((بالرغم من امتلاء هذه الترجمة بالأكاذيب وسوء الفهم فإنها كانت الأساس الذي قامت عليه الترجمات الأوربية المبكرة في الأسلوب الذي استخدمه)). ولقد تم الحجر على هذه الترجمة في رفوف الأديرة والكنائس ينقلون عنها وينتخبون منها ما يساعدهم في إذكاء الصراع بين أحيالهم التي تمنهم الكنيسة بالصفح عن أخطائهم وتكفير ذنوبهم، وبين المجتمع الإسلامي، وظلت هذه الترجمة قرابة خمسة قرون ليست في متناول الجميع رغم ما فيها من التحريف والخطل، توجسا من انتشار الإسلام واعتقادا منهم أنهم بعملهم هذا، أي بإفساح المجال للقرآن مترجما أن يختلط بثقافتهم إنما يقدمون خدمة للمسلمين من حيث لا يرغبون. إلى أن جاءت سنة 1543م كتب لها الخروج والانتشار في عصر انتشرت فيه المطابع في أوروبا، فقام [نيودوريلياندر]، من مدينة زيورخ بنشرها في مدينة [بال Basle] السويسرية، فظهرت أول طبعة بالآلة للقرآن باللاتينية وهي طبعة كاملة حافلة بالأكاذيب والأباطيل التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على سوء فهمهم للقرآن ولغة مضافا إلى ذلك سوء النية التي يبيتونها للقرآن وأتباعه.

وقد انتشرت الترجمة اللاتينية السابقة بين الأوربيين، وشكلت المرجع الأساس والأصل الذي اعتمدت عليه غالب الترجمات الحديثة فنقلته إلى ألسنتها المتفرعة عن اللاتينية والأبجلوساكسونية كالإيطالية والألمانية والهولندية والفرنسية والإنجليزية، وغيرها. من لهجاتها المتعددة. فتناقلته عن الأصل اللاتيني بما فيه من الأكاذيب والافتراءات والتشويه المقصود والمتعمد.

وقد قام بأول ترجمة للقرآن الكريم عن الأصل اللاتيني إلى اللغة الفرنسية المستشرق القنصل

التجاري الفرنسي في المناطق الواقعة شرقي البحر المتوسط بدءا بتركيا، والتي كانت تسمى Levant.

المستشرق وهو Andre du Ryer في سنة 1647م ولقيت رواج هذه الترجمة وشهرة واسعة (أنظر مقدمة آربري لترجمة القرآن).

وبعد عامين من الظهور الترجمة الفرنسية الآنفة الذكر، ظهر أول ترجمة إنجليزية التي قام بها (Alescandre Ross) باعتماده الترجمة الفرنسية، ولا غرو أن نلاحظ بعض التغيرات في ملامح هذه الترجمة، فقد أرفقها بإعلان غريب الذي يوضح طبيعتها الحاقدة؛ بقوله: ((ترجم قرآن محمد: من العربية إلى الفرنسية بقلم السير: [Ryer] دوق [Malezair] وقنصل الملك الفرنسي في الإسكندرية وقد ترجمت حديثا الإنجليزية لإشباع رغبات الذين يحاولون استقصاء أسباب الافتراءات التركية (يقصد افتراءات القرآن)).

ويمكنكم معاينة نص هذا الإعلان المكتوب على غلاف الترجمة المطبوعة في لندن عام 1649م ويظهر عليها اسم المترجم،<sup>(1)</sup> ولقد ألحق [ألكسندر روس Alescander Ross] بترجمته تفسيرات وهوامش عن حياة النبي محمد ﷺ نبي الأتراك ومؤلف القرآن في نظره، وعمما يدعيه من أكاذيب وصفها بأنها خطيرة وضعها محمد في القرآن، وذلك ليأخذ الأوروبيون حذرهم منها.

إن أول مظاهر غلواء الفكر الاستشراق؛ تتجلى في تعاملهم مع القرآن الكريم، ترجمة ودراسة لمباحث علومه. والواقع أن المستشرقين عندما ترجموا القرآن الكريم مثلاً، وضعوا له فهارس بألفاظه، ووضعوا الدراسات التي لا تخصي عنه، فإن عملهم ذلك في الأصل كان ذا هدف معين ومحدد. سبق وأن نوهنا أ، جهود المستشرقين نالت من القرآن الكريم كمجال من مجالات دراساتهم، وباهتمامهم بترجمته من لغته الأصلية، أو فيما بعد من ترجمته اللاتينية إلى سائر اللغات الأوربية والأمريكية ((الأنجلوسكسونية واللاتينية))

واجهت هذه الترجمة عنتاً شديداً من الطوائف المسيحية باتخاذهم موقفاً متطرفاً منها، وهو منعها من الظهور إذُ اعتبرها عاملاً مهماً من شأنه أن يسهل التعريف بالإسلام وانتشار هذا الدين بدلًا من أن تخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة باستقطاب العديد من أبناء أوربا له، من الذين تلقوا العلوم والمعارف واللغات وآدابها في ديار الإسلام. وبالفعل تم ذلك واستمر المنع وظلت الترجمة المذكورة ضمن محفوظات الدير، ولم تصدر إلا في سنة 1543م؛ أي بعد مئات من السنين على وضعها، حتى قيض لها الظهور في مدينة [بال Bale] بسويسرا على يد الطابع [ثيودور بيبلياندر Theodore Bibliandre] وبعد أن طبعها اعتمدت هذه الترجمة لمدة طويلة أساساً للترجمات إلى عدد من اللغات الأوربية، وانطلقوا من فكرة ترجمة القرآن الكريم صراحة لدحض المبادئ الإسلامية وتفنيدها. وقد فعلوا ذلك بروح رجعية متمتة سداها معاداة الإسلام، ولنا على ذلك مثل في الترجمة الإسبانية التي وضعها [موركيونديو إي أوكراتونديو Yugratondo-Bonigno De Murguiondo]. وعنوانها هكذا بكل صراحة ((القرآن

مترجماً بأمانة إلى الإسبانية ومعلقاً عليه ومدحضاً طبقاً للعقيدة والتعاليم المقدسة والأخلاق الكاملة للدين الكاثوليكي المقدس الرسولي الروماني))، وهي بدون تاريخ، واندفعوا نحو الترجمة الكيفية لا الصحيحة والعلمية أو حتى النسبية لحد ما، إمعاناً في التحريف والتضليل خوفاً أن يعتنق الإسلام من يقف من الأوربيين على حقيقة النصوص القرآنية. فيما لو حصل على ترجمة صادقة أو صحيحة، وكانوا يعملون على إعادة نشر هذا النوع بالذات من الترجمات مرات عديدة وتشجيع ترجمة هذه الترجمات إلى لغات أخرى، وتحييد نشر الترجمات التي تنطوي على الأضاليل والتحريفات والأخطاء الفنية والشطحات التي سداها الحقد والتعصب الذميمة.

واستعملوا بأسلوبهم هذا في ترجماتهم العبارات القديمة التي أصبحت مهجورة وغير مألوفة مع تطور اللغات، واللغات تتطور، وقد يأتي زمان على أبنائها لا يعرفون فيه شيئاً عن لغتهم القديمة، كما هو الحال بالنسبة للغة الفرنسية والإنجليزية واليونانية القديمة مثلاً، وقد تدل على معانٍ مشبوهة أو تنطوي على شيء من اللمز والغمز وكثيراً ما تكون إحدى المفردات ذات معنيين معيّن.

ونجد المستشرقين يتعمدون التحريف في ترجمة بدايتها عندما يعاد طبعها بحيث يبرز شرح أو تفسير كلمة مغايراً لما كان عليه في الطبعة الأولى مما يدل على روح التضليل. وكثيراً ما تنشر الترجمات تحت أسماء مستعارة أو بأحرف فقط تدل على اسم المترجم بغية عدم إظهار شخصيته الحقيقية، فتكون مدعاة للقراءة النقدية، وهذا حصل كثيراً في الثلاثينيات من هذا القرن. ومن الطبيعي أن لا يعرف الاسم من خلال الأحرف الأولى، اللهم إلا المطلعين على أعمال الكاتب والمعتادين عليه، ولدينا مثال على ذلك، الترجمة الإسبانية، كانت قد صدرت منها بقلم [OBBJ] وصدرت الطبعة الثانية بقلم [JBB] وأخيراً صدرت الطبعتان الثالثة والرابعة بقلم [JBBO]، فتأمل أخي الطالب هذا اللطوح الذي لا يقدر عليه إلا الأذكياء.

وكان ديدن المستشرقين إعادة نشر الترجمات المحرفة التي سداها الضغينة ودحض الإسلام كما فعل [ماراكسي Marracci]، الذي جمع ترجمات من هذا النوع أصدرها أشخاص لا يفقهون العربية، بالتعاون مع من لا يعرف اللاتينية، ونشرها عام 1698م، وكان لها دور فعال إيجابياً بحيث وجدت محبذين كثيرين.

والخليق بالذكر أن من خصائص هذه الترجمات أنها تتصدر بمقدمات حاشدة بالشبهات الباطلة حول القرآن، أن يشير في خفة قلم إلى أن هذا الكتاب هو من وضع محمد وليس وحياً سماوياً. فنجد على سبيل المثال، ترجمة [جورج سيل] للقرآن الكريم الذي وضع لها مقدمة أودعها كثيراً من لسموم والفساد، فقال: ((أما أن محمداً كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل وإن كان من المرجح . مع ذلك . أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة سيرة، وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك نفسه)).

إلى حوار هذه السخافات هناك أيضاً التنويه والتعريض بحياة صاحب الرسالة تعريضاً مليئاً بالتهم والتشهير بالنبي والمسلمين والعرب باعتمادهم مصادر غير صحيحة يهودية وغيرها، فمثلاً في مقدمة وضعها [فيليب إيرلانجر]، يقول: ((كان أسلوب النبي في القرآن الكريم أول عهده بالدعوة مفعماً بالعواطف، قصير العبارات، فخم الصورة، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة، وكثيراً ما يكرر الآيات تكراراً مملاً، حتى تنقلب معانيها إلى الضد، ز فلما تقدم الزمن بالنبي فقد الأسلوب منهجه الأول، وأخذ يقص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء، مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجته [بوشيفار]، وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من الشعراء الفرس والترك. وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة وكل فنٍّ وأغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى)).





## المستشرقون ومصدر القرآن الكريم:

إن السبب الأول الذي حمل المستشرقين إلى الحقد على القرآن الكريم وإصرارهم على أنه من وضع محمد ﷺ وتلفيقاثن وليس كلام الله ووحيه؛ هو تسديد القرآن الكريم سهام نقده بمنهج ليس بعده شك، إلى التوراة والأنجيل، واتهامه لأقوامهما بالتحريف. ولذلك ذهبوا إلى التركيز على نفي العنصر الإلهي والربانية عن مصدر القرآن الكريم، وقطع صلته بالسماء تماماً، وعدّوه من تأليف محمد ﷺ. على غرار ما نوهنا سالفاً. وزعموا أن لقرآن محمد ﷺ عدة مصادر أهمها هي:

**أولاً- المصدر اليهودي:** يرى المستشرقون أن محمداً ﷺ في تأليفه للقرآن استفاد من اليهودية ومصادرها، إلى هذا الظن يذهب المستشرق الأب ((هنري لامانس)) إلى أن محمداً ﷺ قد مر في حياته الأولى قبل أن يبلغ ما ادعاه بأزمات حادة، غيرت مجرى حياته، أفسى هذه الأزمات، أزمت روحية دينية، حدث به إلى اعتزال المحيط بمشيراته، ومؤانسة التأمل، انعكست في مخيلته أحلاماً ورؤى مضطربة، ثائراً على مادية قريش المتسلطة، مشتمراً من عبادتها للأوثان، فاعتنق الوحدانية وآمن بالبعث والحساب، ووجد نفسه متفقاً في هذه المعتقدات مع اليهود والنصارى، واعتقد أنه ما دام ليس هناك إله واحد فليس هناك إلا وحي إلهي واحد، وعلى العرب الا يبقوا خارج هذا الإطار. فأعتقد أنه مدعو لنشر هذه الحقائق بين أبناء جلدته. وبلغتهم أيضاً. وهو دور متواضع محدد في صياغة الوحي العالمي باللغة العربية مطوع وفقاً لحاجيات وظروف كل شعب.

و نجد المستشرق [ريتشارد بل، Richard Bell] أستاذ اللغة العربية بجامعة ((أدنبره)) وقد صرف سنين كثيرة في دراسة القرآن وتاريخه. قد صدر له ترجمة للقرآن الكريم، بالإنجليزية في جزئين عام 1937م، ففي كتابه ((مقدمة القرآن الكريم))، يذكر أن الرسول ﷺ قد استمد من العهد القديم الكثير في تأليفه للقرآن، ويقول: ((..واعتماده. أي محمد ﷺ. على الكتاب المقدس وبخاصة العهد القديم في قسم القصص فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود، مستمد من مصادر عربية ولكن الجانب الكبير من المادة التي استعملها محمد ﷺ ليفسر تعاليمه ويدعمها، قد استمد من مصادر يهودية ومسيحية))، ويركز في فريته هاته على هجرته ﷺ إلى المدينة؛ إذ يعتبر ذلك الحدث يمثل أكبر فرصة للنبي ﷺ للاستمداد من الكتاب المقدس والاستفادة منه، إذ غدا على مقربة من الطوائف اليهودية التي تقطن المدينة وأحبارهم ورهباؤهم؛ فيقول: ((وفي المدينة كان محمداً بالنسبة لمعرفة ما في كتاب العهد القديم، في وضع أفضل من وضعه السابق في مكة، فقد كان على اتصال بالجاليات اليهودية التي كانت دون شك تضم ربانيين مثقفين وهناك دلائل على أنه انتفع بهذه الفرصة فحصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل)).

وكتب: (سيدرسكي) كتاباً بعنوان: ((أصول الأساطير الإسلامية في القرآن وفي سير الأنبياء)) حاول أن يتخذ من الأساطير التي ليظت بالقرآن في تفاسيره، حجة ودليلاً على أن مصادر القصص القرآني ترجع إلى المصادر اليهودية، وتناول قصة خلق آدم، ونزوله من الجنة، وقصة إبراهيم والتلمود وقصة

يوسف، وقصة عيسى و قصة موسى، وقصص داود وسليمان، وحاول أن يرجع كل آية قرآنية تعرضت إلى إحدى هذه القصص إلى كتاب: ((الأغذاء)) العبري والأنجيل المسيحية المختلفة واستفاد مما كان يذيعه (كليمان هوار) عبر الهواء في القناة الإذاعية حول العالم الإسلامي.

**ثانيا - المصدر المسيحي:** وعلى غرار المصدر اليهودي الذي يخاله المستشرقون قد شكل مصدرا ثريا لمحمد ﷺ يجمعون في كثير من الأحيان بينها وبين المصادر المسيحية كالأنجيل وغيرها هي الأخرى شكلت رافدا قويا من الروافد التي اعتمدها محمد ﷺ في تأليفه القرآن الكريم، وفي هذا الصدد نجد المستشرق الفرنسي ((رجي بلاشير)) يشير في كتابه ((معضلة محمد)) إلى أن مما لفت انتباهه هو ذلك التشابه الحاصل بين القصص القرآني و القصص اليهودي المسيحي الذي يبدو واضحا في السور المكية الأولى إذ كبرا ما تكشف المقارنة بينها وبين النصوص غير الرسمية كالإنجيل الطفولة الذي كان سائدا في ذلك العهد عن شبه قوي ويعرض في هذا الصدد رأي بعض الباحثين، مبينا رأيه فيما يستنتج من العلاقات المستمرة التي كانت تربط مؤسس الإسلام محمد ﷺ والفقراء المسيحيين بمكة.

وهناك زعم أيضا؛ أن التأثير المسيحي على محمد يتجلى في اتصاله بورقة بن نوفل بن أسد، فهو مدين له بالكثير. إفتري هذا الزعم من قبل ((درمنجهام))، ومن المتأخرين ((مونتجومري واط))، فقال في معرض كلامه عن زواج النبي بخديجة: ((كما أن خديجة كانت ابنة عم رجل يدعى ورقة بن نوفل بن أسد وهو رجل متدين اعتنق أخيرا المسيحية، غالبا وبالتأكيد، فإن خديجة قد وقعت تحت تأثيره، ويمكن أن يكون محمد قد أخذ شيئا من حماسة فكرته))، ويواصل كلامه فيقول: ((ويبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة، ولا شك أن المقطع القرآني حين رده محمد يجب أن يكون قد ذكره بما هو مدين به لورقة))، ويقول أيضا: ((.. ولهذا فمن الأسهل الافتراض بأن محمدا كان قد عقد صلوات متكررة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيرا بأفكار ورقة، وهذا ما يعود بنا إلى طرح مشكلة [العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له].

وعلى غرار هذه الفرضية التي شكلت مسلمة عند غالب المستشرقين؛ تكررت محاولاتهم بإبراز التأثير المسيحي في النبي ﷺ وكتابه. بيد أن المعلومات التي جمعها محمد من البيئة التي كان يعيش فيها؛ أي في مكة، عن النصرانية وعن المسيح وعن أمه، أغلبها خاطئ ومحدود. فيقول المستشرق رودري بارت: ((لقد كانت معلومات الناس في مكة - في عصر النبي - عن النصرانية محدودة وناقصة، ولم يكن النصرانيون العرب سائرين في معتقداتهم في الاتجاه الصحيح، ولهذا كان هناك مجال لظهور الآراء البدعية المنحرفة، ولولا ذلك لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التي تنكر صلب المسيح وتذهب إلى أن نظرية التثليث النصرانية لا تعني الأب والابن وروح القدس، وإنما تعني الله وعيسى ومريم، وعلى أية حال فإن

المعارف التي استطاع محمد أن يجمعها عن حياة المسيح وأثره كانت قليلة ومحدودة، وعلى العكس من ذلك كان محمد يعرف الشيء الكثير عن ميلاد عيسى وعن أمه مريم)).

يبدو أن رودى بارت يريد أن يتحاشى التناقض ويبرر ذلك الاختلاف بين القرآن الكريم والأنجيل في عرض قصة سيدنا عيسى عليه السلام والنقد اللاذع الذي وجهه القرآن للأنجيل في مشاهد هذه القصة ودحض نظرية التثليث التي هي قوام الأيديولوجيا المسيحية، فلكي يتحاشى التناقض فمن جهة يرى وغيره من المستشرقين أن محمد قد اعتمد على المصادر المسيحية في إعداد القرآن أما اعتماد ومن جهة أخرى نلاحظ في القرآن انتقادا وفضحا للذين كذبوا على الله والمسيح عليه السلام، وعليه فإن هذا الاختلاف مرده إلى أن محمدا قد استقى معلوماته هذه عن المبتدعة المسيحية في نظر المستشرقين الذين كانوا في مكة وأخذ أيضا عن المسيحيين العرب المكين الذين كانت معلوماتهم عن المسيح وأمه معلومات سطحية.

وهناك من أهم المصادر الحية المسيحية التي شكلت لمحمد رافدا قويا في تأليفه القرآن الذي يزعم أنه أوحى له به، وهو اتصاله بالراهب السوري ((بحيرى)) وقد تمثل محمد في نفسه ما كان يسمعه من هذا الراهب في نظر الكثير من المستشرقين، وخرج على الناس يعلن دينه الجديد الذي لفته من مصادر عدة للديانتين.

كثير من المصادر ترى أن هذه الواقعة التاريخية ليست صحيحة العربية منها وغير العربية، فنجد المستشرق كليمان هوار، في بحث له حول هذا الموضوع يقول: ((لا تسمح النصوص التي عشر عليها ونشرت وبُحِث منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور المسند إلى هذا الراهب السوري؛ إلا مجرد قصة من نسج الخيال))، ولو فرضنا جدلا أن هذه القصة صحيحة، فلا يعول عليها في تأسيس نظرية يعتقد أصحابها أن هذا اللقاء الذي تم بين محمد والراهب السوري ((بحيرى)) ومحمد في سن الصبا في صحبة عمه أثناء رحلته التجارية إلى الشام ولم تشر المصادر التي روت هذه القصة على تعلقها، إلى أن هذا اللقاء قد تكرر بين محمد وبحيرى، فكيف يعقل أن هذا اللقاء العابر غير المتكرر في سن الصبا رافدا لكتاب محمد الذي أعجز الأولين والآخرين

**ثالثا - المصدر الشعري العربي:** اعتقد بعض المستشرقين أن محمد ﷺ اعتمد الشعر العربي كمصدر متميز في إعداد كتابه، إذ الشعر يشكل المناخ الفكري البارز في بيئته، وما لاحظته هؤلاء المستشرقون من بعض التشابه الإيقاعي بين القرآن وبعض الأبيات المزعومة، وهذا ما رآه المستشرق ((كليمان هوار)) إذ كتب فصلا زعم فيه أنه اكتشف مصدرا جديدا لكتاب محمد، وهو شعر أمية بن أبي الصلت. وقارن بينه وبين آيات من القرآن الكريم، فاستنتج صحة هذا الشعر بما يلاحظ من فروق بين ما ورد فيه، وما ورد في القرآن من تفصيل لبعض قصصه كأخبار ثمود وصالح، والدليل على هذا الموقف والرأي؛ أن المسلمين، مارسوا نوعا من الاستبداد الفكري على شعر هذا الشاعر، فمحوه وحاربوه وحرّموا

إنشاده، لينفرد القرآن بأسلوبه، ويجرز محمد مع أميته على تصديق أتباعه بأسلوب كتابه المعجز، وليستأثر القرآن بالجدّة، وينفرد محمد بتلقي الوحي من السماء .

وفي زعمهم أن الآيات التي يتفق معها شعر أمية بن أبي الصلت هي: قوله تعالى: ((فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر، خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر)) القمر: 6  
7+.

وقوله تعالى: ((إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا، وإننا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا)) الكهف: 7+ 8.

وقوله تعالى: ((كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى..)) الملك 8+ 9.  
وما يوافق هذه الآيات من شعر أمية في زعمهم قوله:

ويوم موعدهم أن يحشروا زمرا      يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر  
مستوسقين مع الداعي كأنهم      رجل الجراد زفته الريح منتشر  
وأبرزوا بصعيد مستو جرز      وأنزل العرش والميزان والزبر  
يقول خزائها ما كان عندكم؟      ألم يكن جاءكم من ربكم نذر  
قالوا: بلى فتبعنا فتيمة بطروا      وغرنا طول العيش والعمر

وقد تابعه في هذا الادعاء المستشرق ((دي بور))، إذ اعتبر التشابه بين شعر أمية والقرآن، دليلا قاطعا على أن محمدا أخذ عنه، والحجة في ذلك السبق الزمني لأمية عن زمن ادعاء محمد الوحي إليه.  
وأورد المستشرق ((توسدال)) على أن في شعر امرئ القيس ما يشبه كلام محمد في القرآن، وهو قوله:

دنت الساعة وانشق القمر      عن غزال صاد قلبي ونفر  
أحور قد حرت في أوصافه      ناعس الطرف بعينيه حور  
بسهم من لحاظ فاتك      تركتني كهشيم المحتضر

بيد أن ادعاء كليمان هوار من أن أحد مصادر القرآن الكريم هو شعر أمية بن أبي الصلت، فهو ادعاء لا يسنده أساس علمي صحيح، ولا يرتكز على قاعدة علمية لا يمكن دحضها، ذلك أنه لا يمكننا أن نستنتج صحة شعر هذا الشاعر لمجرد وجود فروق بين ما جاء فيه و ما جاء في القرآن من تفصيل بعض القصص، ولا ننتهي أبدا إلى تلك النتيجة التي أرادها هذا المستشرق من أن صحة شعر أمية يستلزم أن يكون النبي قد استعان به قليلا أو أكثر في نظم القرآن، كما أن صحة هذا الشعر واستعانة النبي به في نظم القرآن قد حملتا المسلمين على محاربة شعر أمية ومحوه ليستأثر القرآن بالجدّة، وليصبح أن النبي قد انفرد بتلقي الوحي من السماء.

نعم ، إن شعر أمية بن أبي الصلت ملئ بالحكم والمواعظ الدينية وهي آراء قريبة جدا من الإسلام، كما أنه ملئ بقصص الأنبياء وبوصف الجنة والنار، ولكن كيف حدث التشابه بينه وبين القرآن الكريم؟ فهل تأثر أمية بالقرآن فأخذ عنه؟ أو أخذ القرآن الكريم من أمية؟، أو أخذ الاثنان أمية والقرآن من مصدر ثالث وهو الكتاب المقدس بقسميه القديم والحديث؟. ومن هنا نكون أمام فروض ثلاثة يتحتم علينا تحليلها للبرهنة على هذا التشابه.

**أما عن الفرض الأول:** وهو تأثر أمية بالقرآن؛ فإن الأمر يقتضي معرفة تواريخ شعر أمية، وتعيين أوقات نظمه، وحصر المدة الزمنية التي قال فيها شعره، بحيث لا تتعدى السنة التاسعة للهجرة لوفاته خلالها انتهاء، ولا تشمل الفترة السابقة للبعثة ابتداء، ومن الصعوبة بمكان تحديد الشعر الذي قاله أمية قبل البعثة وإبانها حتى السنة التاسعة للهجرة ويصبح هذا الافتراض باطلا.

**أما بالنسبة للافتراض الثاني:** وهو تأثر القرآن بشعر أمية فهو افتراض من الصعب اتباعه هو الآخر، إذ لو كان الأمر كذلك لما سكنت عنه قريش، وهم الذين اتهموه مرارا باستقاء معلوماته من غلام نصراني اسمه ((جبر)) والذي أشار إليه القرآن صراحة بقوله: ((ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)).

**أما الافتراض الثالث؛** والقاضي بأخذ الاثنان أمية والقرآن من مصدر ثالث وهي الكتب اليهودية والمسيحية وتفسيرها، فإنه يرد عليه بنفس الحجّة الداحضة للافتراض الثاني، وهو عدم سكوت قريش على هذا، وهم قد أجهدوا أنفسهم في تلمس مصادر النبي التي افترضوها في المسيحيين الموجودين بمكة، ثم إن هذا التشابه ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين، وإنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر، بدليل ورود أمور في القرآن لم ترد في التوراة أو الإنجيل، ولكنها وردت في شعر أمية، يضاف إلى ذلك تلك الشكوك التي تحوم حول صحة شعر أمية ذاته، خاصة أن الناقدين له أثبتوا أنه منحول متكلف نظم في العصر الإسلامي.

## المستشرقون وبنية النص القرآني:

قد تعرض المستشرق ((ريجي بلاشيه)) إلى دراسة القرآن من حيث جمعه وترتيبه، وخلص إلى أن كتابة القرآن مرت بمراحل:

**المرحلة الأولى: مرحلة حفظ القرآن الكريم في الصدور** والتي إستمرت في نظره إلى عشرين سنة، ونفى مسألة تدوين القرآن قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم أي بعد ثلاثة عشر سنة أثناء المرحلة المكية، يقول: ((إن ميل الرسول وأصحابه إلى ترك الأمور على ما هي عليه يؤيده ما اشتهر به العرب من أنهم لا يفكرون إلا في الحاضر، ولا يهتمهم المستقبل، وهذا الميل يقف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن في عهده، إذ لم تكن الحاجة ماسة إليه، كما كان يؤيد ذلك عدم تعيين خليفة له)) [كتاب : مدخل إلى القرآن].

وقد بدا تركيز بلاشير في هذه المرحلة على مسألة معرفة العرب موطن الوحي المحمدي بالكتب المقدسة الأخرى المكتوبة كالتوراة، التي كان يستخدمها اليهود والمسيحيون بالمدينة، أو الأناجيل المسيحية التي يستخدمها أهل نجران والحبشة، باعتبار العلاقات التجارية التي كانت تربطهم بتلك الأمصار ولقد اعتبر هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كانت حافزا له على تدوين القرآن على العسب واللحى والرقاع، وعظام الأكتاف، والأضلاع، وقد وافق الرسول على هذه المبادرة من بعض أتباعه دون أن يفرضها بطريق القوة والإكراه.

إلا أن هذه المسألة أي جمع القرآن وتدوينه بهذه الطريقة عرض القرآن إلى مجموعة من المشاكل والمعوقات أفضى به إلى حالة خامره فيها شيء من عدم الصحة مرد ذلك إلى أن التدوين لم يكن صحيحا تماما فسقطت آيات كثيرة منه، إضافة إلى أن أدوات الكتابة في هذه المرحلة وما اشتملت عليه من المكتوبات قد تم ذلك بدون ضبط أو نظام بل قد ضاع بعض معتبر منها.

بيد أنه تواترت الأخبار والتي يستشهد بها الكثير من المستشرقين عن كتابة عبد الله بن سعد بن أبي سرح للرسول وهو في مكة، وأنه كان يكتب للنبي، وكان فيما يملئ ((عزيز حكيم))، فيكتب عبد الله ((غفور رحيم))، فيغيره، فرجع عن الإسلام، ولحق بالمشركين ووشى بعمار وجبير عند ابن الحضرمي، أو لبني عبد الدار، فأخذوهم فعدبوا.

ويقال أن سبب نزول قوله تعالى: ((ومن أظلم ممن افترى على اله كذبا أو قال أوحى إليّ ولم يؤح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله)) وهي آية مكية ضمن سورة الأنعام، فيكون هذا دليلا على أن عبد الله قد كتب للنبي عندما كان بمكة وقبل الهجرة، ومن هذه الواقعة يمكن إبطال زعم بلاشير من أن القرآن لم يدون إلا بعد الهجرة.

ويؤكد المؤرخون على أنه لما نزل الوحي على الرسول في مكة كان في قريش 17 رجلا كلهم يكتبون. أي يعرفون الكتابة. وذكروا منهم من المسلمين الأوائل: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبا عبيدة بن الجراح، وطلحة(1).

واستدل المسلمون على توفيقية جمع القرآن وترتيبه بقوله صلى الله عليه وسلم: ((أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة...)).

**أما المرحلة الثانية في نظره: تدوين القرآن،** بدأت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في عهد أبي بكر، وقد جمع هذا الأخير القرآن من صدور الحفاظ ومن الأدوات التي كتب عليها، إلا أن هذا الجمع لم يتعد المبادرة الشخصية الفردية، كما لم يتجاوز ما كان محفوظا في صدور بعض أصحاب محمد من الحفاظ، وهذا يفضي بالكاتب إلى أن العملية لم تكن إلا مبادرة شخصية من هؤلاء، وعليه فإن جمع القرآن الكريم لم يكن وتدوينه لم يتم بطريق علمي صحيح، وعليه فقد اتسم القرآن بالنقصان والاختلاف والزيادة في بعض الآيات.

ثم يستطرد بلاشير قائلا: إن الخطوة التي اتخذها عثمان بن عفان تعد خطوة حاسمة في تاريخ القرآن بأجمعه إن جمعه بطريق منظم وعلمي، وأكثر شمولا واتساعا إلا أن غياب التنقيط في هذه المرحلة أفضى إلى اختلاف شديد في قراءة القرآن بين الأتباع، بالرغم من اختراع طريق الأحرف السبعة كمبرر لذلك، والقراءات السبع لوحدة النص، وفي نظره أن هذه الطريق زادت من تعميق مساحة الاختلاف بين المسلمين عبر تاريخ طويل.

ويتكئ بلاشير على شبه آثراها الشيعة فهو يعتبر اغتيال علي بن أبي طالب زاد مشكلة وحدة النص القرآني تعقيدا، إذ قامت شيعته باتهام الخليفين أبي بكر وعمر بتحريف القرآن وإسقاط كثير من آياته وسوره، وحذف جميع الآيات التي تعين الإمام علي بصراحة إماما وخليفة للمسلمين.

**المرحلة الأخيرة: التي مرت بها عملية تدوين القرآن** حصلت زمن الخلافة الأموية

وذلك عندما نقلت عاصمة المسلمين إلى دمشق، فاقتضى الأمر اتخاذ تدابير جديدة إزاء وحدة النص، وأهم مسألة تمتاز بها هذه المرحلة، هي ضبط رسم القرآن وتنقيطه، وهو ما قام به عبد الملك ابن مروان الخليفة الأموي استجابة إلى اقتراحات واليه الحجاج ابن يوسف واضطروهم ذلك العمل إلى إلغاء بعض الآيات التي تمجد عليا وأهل البيت لأسباب سياسية لا مجال لإنكارها كما يرى بلاشير.

ويقول بلاشير: ((إن ميل الرسول وأصحابه إلى ترك الأمور على ما هي عليه يؤيده ما اشتهر به العرب من أنهم لا يفكرون إلا في الحاضر، ولا يهتمهم المستقبل، وهذا الميل يقف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن في عهده، إذ لم تكن الحاجة ماسة إليه، كما كان يؤيده ذلك عدم تعيين خليفة له)). [من كتاب: مدخل إلى القرآن].

وعلى غرار ذلك بات من الواضح أن مسألة توفر نسخة أصلية للقرآن الكريم في نظر الكثير من المستشرقين لا تحتمل التصديق والقبول، نظرا للإضافات التي لفقها بعد وفاة النبي ﷺ خلفاؤه من أصحابه وتابعيه وتابعي تابعيه. ويذهبون إلى أنه لا مناص من الاعتراف بوجود اختلافات وزيادات مزعومة بين المصاحف الفردية كناية على الصحف التي كانت في حوزة بعض الصحابة الذين أذن لهم الرسول ﷺ بكتابة الوحي الشريف في زمن نزوله عليه ﷺ وبين مصحف عثمان رضي الله عنه.

ويقول في هذا الصدد المستشرق ((بول كازانوف)) (\*) في رسالته [محمد ونهاية العالم]: ((إني أؤكد أن مذهب محمد الحقيقي إن لم يكن قد زيف، فهو على الأقل ستر بأكبر العنايات، وأن الأسباب البسيطة التي سأشرحها فيما بعد . هي التي حملت أبا بكر أولا ثم عثمان من بعده على أن يمدأ أيديهما إلى النص المقدس، بالتغيير، وهذا التغيير قد حدث بمهارة بلغت حدا جعل الحصول على القرآن الأصلي يشبه أن يكون مستحيلا)) (\*).

وجلي أن المقصد الحقيقي الذي أراد الإفصاح عنه ((كازانوف)) هو أن الإسلام وكتابه المقدس . القرآن الكريم . قد تعرض بعد وفاة النبي ﷺ إلى إضافات أساسية وتغييرات جوهرية قام بها خلفاؤه من أصحابه لأغراض في نفوسهم : مثل الآيات التي أخبرت بأن الساعة من القضايا التي استأثر الله بعلمها، في اعتقاده أنهم فعلوا ذلك لتحاكي افحراج بعدما لم يتحقق ما أخبر به الرسول ﷺ من أنها ستقوم عندما تنتهي مهمته، أو على الأقل عند وفاته، وهو يومئ إلى قول الرسول ﷺ : ((بعثت أنا والساعة هكذا. وأشار بالسبابة والوسطى)) (\*).

وقد اقتفى أثر ((كازانوف)) العديد من المستشرقين أمثال المستشرق [الفونس منجانا 1937/1881م] والمستشرق [آجنس سميث لويس] في كتاب لهما الذي نشر عام 1914م بعنوان ((أوراق من ثلاثة مصاحف قديمة يمكن أن تكون سابقة للمصحف العثماني قائمة بما فيها من اختلافات)) (\*). والمستشرق [جولد تسيهر] في كتابه ((مذاهب التفسير الإسلامي))، والمستشرق [جيفري آرثر]. [المستشرق] تيودور نولدكه .].

فنجد على سبيل المثال [جيفري] لاحظ وجود اختلافات في المصاحف الفردية المنسوبة لصحابه رسول الله ﷺ كمصاحف عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وأنس بن مالك، وسالم مولى أبي حذيفة، وعائشة، وأم سلمة: كما تبين وجود اختلافات في المصاحف المنسوبة لبعض التابعين كمصحف الأسود بن يزيد، وعلقمة، وحطان، وسعيد بن جبير، وطلحة، وعكرمة، ومجاهد ، وجعفر الصادق، والحارث بن سويد، وغيرهم ، كما أشار ((جيفري)) أيضا، إلى وجود اختلافات تنسب لمصاحف الأصحاب (\*).

كما يعتبر جولد تسيهر النص القرآني أوفر حظ من المدونات التشريعية السابقة من الاضطراب والخلل فقال: ((لا يوجد كتاب تشريع اليوم اعترفت به طائفة دينية اعترفت به اعترافا عقديا على أنه



نص منزل أو موحى به يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في النص القرآني)) [من كتاب مذاهب التفسير الإسلامي].

ثم أسهب في الحديث عن القراءات السبع، وكيف انعكس عنها تغيرات في الآيات واختلافها وتصادم معانيها، وخلاصة كلامه: أنه ليس هناك نص موحد للقرآن، وأنه طبقاً لنظرية الشيعة ومواقفها المشتتة في مسألة النص القرآني المنتشر في كافة أنحاء المعمورة عدا الأمصار الشيعية المغالية، أنه قد تعرض إلى عملية تحريف، وحذف الكثير من الآيات التي تؤكد خلافة علي وأحقية في الخلافة شرعاً.

وزعم جولدتسيهر أن أحاديث قراءة القرآن الكريم على سبعة أحرف وهو من صحاح البخاري، هي من قرارات عمر بن الخطاب؛ ومرد الاختلاف في القراءات إلى أن التدوين لم يكن كاملاً بل كان جزئياً، وإلى قراءة القرآن بالمعنى، والتي تنسب إلى عبد الله بن أبي سرح الذي ارتد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. ونجد جولدتسيهر يوحى إليه قول عبد الله بن أبي سرح كاتب الوحي عند الرسول: (( كان يملي عليَّ الرسول مثلاً: عزيز حكيم. فأقول: هل أكتب عليم حكيم؟ فيقول النبي نعم كل صواب)) وبالرغم من أن قراءة القرآن بالمعنى لم يقبل بها أحد إطلاقاً، ويظهر من خلال طروحات جولدتسيهر، أنه لا يفرق بين القراءة المتواترة والمشهورة والقراءة بالمعنى.

لقد بدا اهتمام المستشرقين بالنص القرآني اهتماماً بالغاً في بحثهم مسألة الأحرف التي افتتحت بها بعض السور القرآنية. وقد حاول المستشرقون التضييل بإعطاء مفاهيم وتأويلات لها يبدو فيها القرآن متأثراً بالمصادر اليهودية.

وقد بدت البغضاء من أفواه الكثير من المستشرقين إزاء هذا الموضوع، مثل: نولدكه، وجولد تسيهر، وشفالي، ولوت، وبوير، وهيرشفيلد، وتود، ويلاشير، وغيرهم .

وقد ذهب [لوت] إلى أن تلك الرموز التي افتتحت بها السور القرآنية يبدو فيها محمدًا ﷺ متأثراً بمؤثرات أجنبية خارجية، ومن المرجح عنده أن يكون مؤثراً يهودياً.

وقد نفى تيودور نولدكه ((1930/1836)) في كتابه [تاريخ القرآن] أن تكون فواتح السور من القرآن مدعياً أنها رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوجد المصحف العثماني. فمثلاً: حرف الميم كان لـصحف المغيرة، وحرف الهاء لـصحف أبي هريرة، والصاد لـصحف سعد بن أبي وقاص، والنون لـصحف عثمان، إذا فهي عنده إشارات لملكية المصحف، وقد تركت في مواضعها سهواً بدافع النسيان أو الإهمال، ثم ألحقها طول الزمن بالقرآن، فصارت قرآناً.

ولا غرو أن يتأثر بهذا اللغظ من معاصريه أو اللاحقين من المستشرقين، به كالمستشرقان [هيرشفيلد]، و[بول] اللذان اعتبرا طروحات [نولدكه] منطقية مقنعة وأشادا بها، دون نظر منهما إلى اقتناعه بخطئه فيما بعد، وعدوله عن آرائه السابقة اللامنطقية، وقد وجه نقداً لهذه الأوهام وهذا التخييل كل من [لوت]، و[بوير] إذ بدا لهما أن أولئك المسلمين الأتقياء الذين نسخوا المصاحف، يقبلون أن

يضيفوا إلى كلام الله ما ليس منه، أو يقرروا إضافة إليه، وهما يؤكدان؛ بأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور أن أولئك الأعلام دقيقي اللحظ الذين كُلفوا بمهمة جمع القرآن، يمكن أن يجيزوا انضمام رموز بشرية إلى كتاب الله، أو أن يستنبطوا فيما كُلفوا مراجعته رموزا لمعاصريهم.

وقد ارتأى للمستشرق [شبرنجر] أن ((طسم)) لكي تفهم ، يجب أن تقلب لتكون قول القرآن: ((لا يمسه إلا المطهرون))، وقد أخذ [لوت] بهذا الرأي، ونبذه [هيرشفيدل] و [نولدكه] و [شيفالي] . ويرى [بوير] أن في كل فاتحة من فواتح السور رابطا بما يذكر في سورتها؛ فالطاء مثلا في ((طسم)) تشير إلى الطور، والسين تشير إلى سيناء، والميم تشير إلى موسى، وأن هذه السورة تتحدث عن موسى وطور سينين. وكذلك ((حم)) تشير إلى جهنم، لقد حاول بعض المستشرقين إقحام أنفسهم في موضوع تفسير القرآن وتبديل ترتيب آياته، كل ذلك للوصول إلى تثبيت فريتهم على أن النص القرآني غير سليم عن التحريف والنقص والزيادة والتحوير.

لقد عرض المستشرق ((كازانوفيا)) كتابه [محمد ونهاية العالم]، متهما الصدوق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبي بكر الصديق قائلا: ((فهناك آيتان يشك في نسبتها إلى الوحي النبوي، والراجح أن يكون أبو بكر هو الذي أضافهما على إثر موت النبي؛ فأقره المسلمون على ذلك وهما قول القرآن: ((وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل)) (\*) وقوله: ((إنك ميت وإنهم ميتون، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)) (\*))، أفليس من حقنا أن نظن أن الآية الثانية على الأقل صنعها أبوبكر من أساسها)). وإن الظن لا يغني من الحق شيئا.

إن الملاحظ بعد دراسة متأنية واعية لما يكتبه المستشرقون عن القرآن الكريم وما أثاروه من الافتراءات والشبهات، يستنتج أن المستشرقين عسر عليهم اللغو واللغظ في نص القرآن وهذا من وجوه إعجازه، أنهم ركزوا على الناحية التاريخية. بيد أنهم لا يملكون منهجا علميا في دراساتهم التاريخية. إلا أنهم يملكون عواطف تستنكف من المنطق العلمي والمنهج التاريخي. فمثلا: يقبلون بيقين ما حلى في خاطرهم وخدم غرضهم من ماضي المسلمين ويفرضون ويشككون في الذي يشكل غصة في حلوقهم وشواظا على أفكارهم ومبادئهم؛ فإنهم يقبلون الشعر الذي ينسب إلى أمية بن أبي الصلت دون الحاجة إلى البحث والتوثيق فذاك وثيقته العاطفة الرعناء فلقية المستشرقون بالقبول بيقين، لكن روايات ترتيب القرآن الكريم وسوره أو الروايات المتواترة في جمع القرآن لا يقبلونها وعندهم هي في موقع شك، وأنها لا تستند إلى وثائق تثبت يقينها.

## معركة المستشرقين مع السنة النبوية

### تمهيد: ما المقصود بالسنة.

السنة عند علماء الأصول: ما صدر عن الرسول ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات، وروي رواية سليمة ولو كانت أحادية حيث يصح الاستدلال بها في الأحكام. وعند الفقهاء: ما يطلب فعله لا على وجه الالتزام، فتكون قسيمة للواجب والمحظور، والمندوب والمستحب، والمكروه من الأفعال، مثل سنن الصلاة وسنن الصيام.. الخ . ويقسمها علماء الأصول إلى:

### أولا: قسم ليس من باب التشريع ولسنا ملزمين دينيا بتنفيذه والاقتداء به فيه

وهو:

- أ- ما ورد عنه ﷺ خاصا بالأعمال والعادات البيئية كما ورد في شؤون الزراعة والطب.
- ب- ما ورد عنه ﷺ خاصا بالحاجة والطبيعة البشرية كالأكل والشرب، والنوم ونحو ذلك.
- ج- ما ورد عنه ﷺ خاصا بكيفية الحرب وصفّ الجيوش وتسليحها ومثل ذلك، مما يخضع للتدبير تبعا للظروف والملابسة.

فما دخل تحت هذه الأنواع من الأحاديث لا تعتبر تشريعا عاما للمسلمين، عليهم العمل بمن بل أمره متروك لهم، يديرون حسب تجاربهم وعاداتهم، وعلمهم وظروفهم، ويمكن أن يدخل تحت مضمون قوله: ((أنتم أعلم بشؤون دنياكم)).

### ثانيا: قسم يعتبر ما ورد فيه تشريعا للمسلمين:

أ - ما هو تشريع خاص في حالات وظروف خاصة؛ مثل ما ورد عنه ﷺ بوصفه حاكماً للمسلمين وإماماً لهم، فهول لا ينطبق على كل مسلم، بل هو من شأن الحكام وحدهم، ويعتبر من اختصاصهم، كالأمر بحشد الجيوش، وإعلان الحرب، وعقد الهدنة والمعاهدة، وصرف أموال بيت المال والأمر بجبايتها إلى ما يشبه ذلك، فلا يجوز لأحد من المسلمين غير المختصين المسؤولين، أن يتولى أمراً من ذلك بحجة أن الرسول ﷺ، قاله أو فعله، وهو يقتدي به.

وكذلك ما صدر عنه بصفته قاضياً في قضية خاصة لها ظروفها أمامه فليس لكل مسلم أن يصدر حكماً بل ذلك يرجع للقضاة المختصين، وكل حكم له ظروفه وحيثياته، يصدر به حكماً أو لا يصدر به على ضوء ما أمامه، فمثلاً قوله ﷺ: (( من قتل قتيلاً فله سلبه ))، رواه مالك في الموطأ، هل هذا أمر خاص أصدره الرسول ﷺ بصفته قائداً للجيش، فيكون أخذ السلب متوقفاً على أمر يصدره القائد في كل موقعة حربية؟ أو أمراً عاماً وسنة عامة تسري على كل الجيوش والقادة، وليس لقائد أن يمنع ذلك ويلغي سنة الرسول ﷺ؟

ب- وما صدر من الرسول ﷺ بوصفه تشريعاً عاماً للمسلمين، مثل: ما جاء عن الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والحلال والحرام والعقائد... إلخ.

تحتل السنة النبوية الشريفة المرتبة الثانية تاريخياً في اهتمامات المستشرقين البربرية بالفكر الإسلامي ومصادره، فوقف كثير منهم بأفكارهم الموبوءة وتأويلاتهم الآثمة، موقف المرتاب المشكك بلتوح ماكر إزاء كثير من مباحث علوم السنة .

فالسنة هي الجسر الممتد للوصول إلى المراد من خطاب الشارع، لفهم لغزه وإيضاح مبهمه وتفصيل مجمله لإنزال النص على الواقع المختص به. لأن السنة تتنوع من حيث دلالتها على الأحكام إلى عدة أنواع، فمنها ما يكون مقررراً ومؤكداً لما جاء به القرآن الكريم فيكون للحكم حينئذ مداران: أحدهما مثبت له وهو القرآن، والثاني مؤيد ومؤكد وهو السنة، ومنها ما هو مفسر ومفصل لما جاء مجملاً في القرآن، أو مخصصاً لما يراد به الخصوص مما ورد فيه عاماً أو مقيداً لما يراد تقييده مما ورد فيه مطلقاً، ومنها ما هو منشئ ومثبت لما سكت عنه القرآن الكريم، ومنها ما هو ناسخ لبعض ما ورد في القرآن من أحكام، لهذا الدور التشريعي للسنة النبوية حظيت باهتمام المستشرقين في أبحاثهم ودراساتهم الفكرية .

ولهذا الوحل الفكري آثار سيئة في الذهنية العلمية التي تدين بتعاليم الإسلام، على غرار ما أفصح عنه أحد المتحاملين على السنة المطهرة وهو [ هاملتون جيب ] المبشر ضد الإسلام في كتابه ( بنية الفكر الديني في الإسلام ): (( لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي، عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين - ولو عن غير وعي منهم - أثراً يجعلهم في مظهرهم العام: لا دينيين إلى حد بعيد، ولا ريب أن ذلك هو اللب المثمر في كل ما حاوله الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته )) .

ومن المباحث التي تركزت حولها كتابات المستشرقين الحديثية وانطلت عليها حيلهم، قضية تدوين السنة ومراحلها وما تعلق بها من مشكلة الإسناد وقضية الوضع في السنة. والجدير بالذكر أن دهاة المستشرقين في مادة الحديث تركزت كلها أو بالأحرى جلها حول قضية الوضع تحت مسمى عندهم تطور الحديث أو نمو الحديث.

وليس هناك من علماء السنة والمسلمين عامة من ينكر، أن السنة قد تعرضت إلى زيادات نسبت إلى الرسول ﷺ كذبا وزورا، ولكن يغمض المستشرقون أعينهم عن رؤى الحقيقة، في المنهج الذي وضعه المحدثون في تمييز الحديث الثابت النسبة إلى الرسول ﷺ عن الحديث الموضوع. وكتب في ذلك بمنهج دقيق موسوعات ومصنفات كبيرة بعناوين مختلفة، وقد اعترف بخصوصية هذا المنهج الخذاق من جمهرة المستشرقين. كالمستشرق الفرنسي [ هنري لاوس ] حيث قال: (( .. ولما انتشر الصحابة في البلاد بعد الفتح الإسلامية أخذ الناس عنهم الحديث النبوي، وتناوله القصاص، ووضع بعضهم أحاديث وقصصاً، فانبرى لهم رجال مئزوا الصحيح والموضوع. وردوا ما دسّه الوضّاعون، وكانت نتيجة ذلك تدوين الكتب الستة المعتمدة. وأقول: إن التمسك بالسنة من أقوى ما يوجد في الإسلام )).

ومن المستشرقين الذين بحثوا مادة الحديث النبوي: جولدتسيهر، وجوزيف شاخت، وهاملتون جيب، و شيرنجر، وويل، ودوزي، وموير، ولعل أشد المستشرقين خطراً، وأوسعهم باعاً، وأكثرهم خبثاً وفساداً في هذا الميدان، هو المستشرق اليهودي المجري [ جولدتسيهر ]<sup>(1)</sup>، فقد كان واسع الإطلاع على المراجع العربية - حسب ما تذكر بعض المصادر - حتى عد شيخ المستشرقين في هذا الفن، ولا تزال كتبه وبحوثه مادة حية ومرجعا خصباً وهاما للمستشرقين في هذا العصر. كما ينوّه بذلك المستشرق [ بفانغولر ] في قوله: (( لقد كان [ جولدتسيهر ] أعمق العارفين بعلم الحديث النبوي. وقد تناول في القسم الثاني من كتابه (دراسات محمدية) موضوع تطور الحديث تناولاً عميقاً. وراح - بما له من علم عميق، واطلاع يفوق كل وصف - يبحث التطور الداخلي والخارجي للحديث من كل النواحي .. وقد قادته المعاشية العميقة لمادة الهائلة إلى الشك في الحديث، ولم يعد يثق فيه مثلما كان [ دوزي ] لا يزال يفعل ذلك في كتابه: ( مقال في تاريخ الإسلام ).

وبالأحرى كان [ جولدتسيهر ] يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرن الأول والثاني.

فالحديث بالنسبة له لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول: عهد طفولته، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام. ويقدم [ جولدتسيهر ] مادة هائلة من الشواهد لمسار التطور الذي قطعه الإسلام في تلك العصور التي تم فيها تشكيله من بين القوى المتناقضة، والتباينات الهائلة حتى أصبح في صورته النسقية .. ويصور [ جولدتسيهر ] التطور التدريجي للحديث، ويبرهن بأمثلة كثيرة وقاطعة كيف كان الحديث انعكاساً لروح

العصر، وكيف عملت على ذلك الأجيال المختلفة، وكيف راحت كل الأحزاب والاتجاهات في الإسلام تبحث لنفسها من خلال ذلك عن إثبات لشرعيتها بالاستناد إلى مؤسس الإسلام محمد ﷺ وأجرت على لسانه الأقوال التي تعبر عن شعاراتها)).

ويذهب جولد تسيهروشاخت وغيرهما ممن بحثوا هذه المسألة (المادة الحديثة) في دراسات المستشرقين إلى أن ما ورثناه في موروثنا المعرفي من مادة الحديث ما هو إلا نصوصا لقيطة ليس لها ما يثبت نسبها إلى محمد ﷺ، بل هي إفراز الصراع بين السلطة المتمثلة في الحكم الأموي، والمعارضة التي يمثلها في نظر جولد تسيهري طبقة العلماء الأتقياء (وهذا تدليس) لأنه يرمز بالعلماء الأتقياء هي حركة الموالي وما انظم إليها من الشيعة العلوية.

و الخليق بالذكر أن البروفسور جولد تسيهري يقع في تناقض بين، فمن جهة يجزم بحجج واهية غير موثقة بأن عملية التدوين جاءت متأخر إلى عصر الفتنة والصراع بين السلطة والمعارضة في العصر الأموي وينفي أن تكون السنة دوت في زمن النبي ﷺ وحتى في عهد الخليفين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، مما كان عرضة أن يخالط مدونة السنة كم هائل من النصوص الموضوعة والمنسوبة إلى النبي ﷺ، وصعوبة حصر ما قال الرسول ﷺ أو فعله في مدة ثلاثة وعشرين عام، على من عنوا بذلك ممن اشتغلوا بجمع الحديث، ومرد ذلك طول المدة الفاصلة بين عصر النبي ﷺ وزمن بدء التدوين واكتفاء العلماء بما جادت به الذاكرة، والتي كانت معتمدهم في مادة الحديث مع عدم قبول المشاحة في أن الذاكرة لا تعد مصدرا يقينيا لما يعتريها من النسيان والخلط.

بيد أن جولد تسيهري يذهب في كتابه [دراسات محمدية] إلى أن ظاهرة الوضع بدأت زمن النبي ﷺ وتابعه في هذا اللغظ الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام إذ يعتبر حديث رسول الله ﷺ الذي يحذر من عاقبة من يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ القائل: ((من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)). دليلا على أن ظاهرة الوضع برزت في عصر النبي ﷺ فكان هذا الحديث رد فعل منه صلى الله عليه وسلم ولا غرو أن نلاحظ هذا الاضطراب، إذ يقول أن التدوين تأخر إلى القرن الثاني للهجرة على الأرجح في نظره وغيره ممن ذهبوا هذا المذهب، فكان هذا التأخر في تدوين السنة مدعات لظهور ظاهرة الوضع كمبرر أيديولوجي للمواقف السياسية والمذهبية المتصارعة حينئذ، ومن جهة يعتبروا أن الحديث يستخلص من أسباب وروده في محاولات لوضع أحاديث ونسبتها زورا لرسول الله ﷺ.

والخليق بالذكر أن ما أقامه جولد تسيهري، من نظرية الوضع في الحديث، بناء على إشتداد العداء بين الأمويين والعلماء الأتقياء لا أساس له من الصحة، نعم لقد كان العداء بينهم وبين زعماء الخوارج والعلويين قويا ومستحكما، ولكن هؤلاء هم غير العلماء الذين نخصوا لجمع الحديث وتدوينه وروايته، ونقده كسعيد بن المسب، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وسالم مولى عبد الله بن عمر، ونافع مولى ابن عمر، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد

بن أبي بكر، والإمام الزهري، وعطاء، والشعبي، وعلقمة، والحسن البصري، وأضرابهم من أئمة الحديث، فهؤلاء لم يصطدموا مع الأمويين في معارك، ولا أترعنهم أنهم تصدوا لخصومة الأمويين، اللهم إلا ما كان من سعيد بن المسيب وجفائه لعبد الملك، والسبب (5) في ذلك معلوم، وهو عندما أراد عبد الملك أن يأخذ البيعة لابنه الوليد، ثم لسليمان من بعده، فأبى سعيد بن المسيب وقال قولته المشهورة: إن رسول الله ﷺ، نهي عن بيعتين في وقت واحد، فهذا هو سبب الخصام ما بين سعيد وعبد الملك.

ما فحوى التدليس الذي إنتهجه جولد تسيهري في تسمية المعارضة للسلطة الأموية بالعلماء الأتقياء لأن الذين تولو مهمة تدوين السنة وجمعها ومتابعة روايتها هم العلماء لاغير فعليه إذا كان الذين عنوا بجمع الحديث وتدوين السنة هم الذين يشكلون المعارضة فإن هؤلاء سوف لن يتعرضون في خلق أحاديث تنتصر إلى مواقفهم السياسية وآرائهم الإجتماعية ونسبتها إلى الرسول الأعظم. يقول البروفسور جولد تسيهري: ((..ونظرا لأن ما وقع في أيديهم أي \_ العلماء الأتقياء \_ من ذلك لم يكن يسعفهم في تحقيق أغراضهم، أخذوا يخترعون من عندهم أحاديث رأوها مرغوبا فيها ولا تنافي الروح الإسلامية، ويروا ذلك أمام ضمائرهم بأنهم إنما يفعلون هذا في سبيل محاربة الطغيان والإلحاد والبعد عن سنن الدين))، ويقول: ((..ونظرا لأنهم كانوا \_ أي العلماء الأتقياء \_ يؤملون في أعدا البيت وهم العلويون، فقد كان محيط اختراعهم، من أول الأمر موجها إلى مدح أهل البيت فيكون هذا سبيلا غير مباشر في ثلب الأمويين ومهاجمتهم، وهكذا سار الحديث في القرن الأول سيرة المعارضة الساكنة بشكل مؤلم ضد هؤلاء المخالفين للسنن الفقهية والقانونية)) ثم قال أيضا ((..ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، فإن الحكومة نفسها لم تقف ساكنة إزاء ذلك، فإذا أرادت أن تعمم رأيا، أو تسكت هؤلاء ((الأتقياء)) تذرعت أيضا بالحديث الموافق لوجهات نظرها، فكانت تعمل ما يعمله خصومها، فتضع الحديث أو تدعوا إلى وضعه، إشارة إلى الإمام الزهري الذي إفتى عليه الكثير وقال أيضا: (( إنه لا توجد مسألة خلافية سياسية أو إعتقادية إلا ولها اعتماد على جملة من الأحاديث ذات الإسناد القوي)). ويقول: ((ولم يكن الأمويون وأتباعهم ليهمهم الكذب في الحديث الموافق لوجهات نظرهم، فالمسألة كانت في إيجاد هؤلاء الذين تنسب إليهم، وقد إستغل هؤلاء الأمويون أمثال الإمام الزهري بدهائهم في سبيل وضع الأحاديث)).

لقد ادعى أستاذ المستشرقين اليهودي المجري جولدزبهر أن عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج أيام محنة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، وبني قبة الصخرة في المسجد الأقصى ليحج الناس إليها ويطوفوا حولها بدلاً من الكعبة، ثم أراد أن يحمل الناس على الحج إليها بعقيدة دينية، فوجد الزهري وهو ذائع الصيت في الأمة الإسلامية مستعداً لأن يضع له أحاديث في ذلك، فوضع أحاديث منها:

- حديث: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى". متفق عليه وأحاديث أخرى..

وذكر جولدزيهر أدلة على ذلك - حسب فهمه وزعمه وجهله - من الأدلة عنده: أن الزهري - رحمه الله - كان صديقًا لعبد الملك وكان يتردد عليه، وأن الأحاديث التي وردت في فضائل بيت المقدس مروية من طريق الزهري فقط كما زعم جولدزيهر .

انظر أخي الكريم إلى منهج المستشرقين في تشويه الإسلام والكذب عليه، فدعوا هذه كذب وزور وبهتان . **ودليل ذلك:**

(1) - اتفق المؤرخون الثقات على أن الذي بنى قبة الصخرة هو: الوليد بن عبد الملك وليس عبد الملك كما زعم جولدزيهر، ولم يقل أحد بمثل ما قاله غير الدميري صاحب كتاب "حياة الحيوان الكبرى" نقلاً عن ابن خلكان في وفيات الأعيان .

فالرواية ضعيفة وشاذة عن رواية الثقات المعروفين، وعلى الرغم من ضعفها فليس فيها ما يدل على أنه بناها ليمنع الناس من الحج إلى الكعبة .

(2) - نص جولدزيهر في حادثة بناء قبة الصخرة كما أورده ظاهر البطلان بين الفساد !! لماذا ؟ لأن الذي بنى قبة أو بيتاً ليحج الناس إليه ويتركوا حج بيت الله الحرام هو كافر مارق من الدين مهدور الدم، فكيف يتهم الخليفة عبد الملك بن مروان بهذا، مع أن أحداً من خصومه لم يتهمه بكفر ولا ردة، ولم يشنع عليه في ذلك - على فرض صحة نسبة ذلك إليه - مع أن الروايات الثابتة تنفي ذلك وترفضه .

(3) - ثم إن الإمام الزهري - رحمه الله - ولد سنة إحدى وخمسين أو ثمان وخمسين للهجرة، ومقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما كان سنة ثلاث وسبعين، فيكون عمر الزهري حينئذٍ اثنين وعشرين سنة على الرواية الأولى، وخمس عشرة سنة على الرواية الثانية.

فهل يعقل أن يكون الزهري في هذه السن المبكرة ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية، بحيث تتلقى منه حديثاً موضوعاً يدعوها فيه للحج إلى القبة بدلاً من الكعبة !!؟

(4) - ثم إن نصوص التاريخ قاطعة بأن الإمام الزهري في عهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لم يكن يعرف عبد الملك بن مروان ولا رآه في تلك الفترة . فقد ذكر الإمام الذهبي أن الإمام الزهري وفد لأول مرة على عبد الملك في سنة ثمانين للهجرة، وذكر الإمام ابن عساکر في تاريخه أن ذلك اللقاء كان في سنة اثنين وثمانين .

وعلى كلا الروايتين فإن ابن الزبير كان قد قتل قبل بضع سنوات، وبالتحديد في سنة ثلاث وسبعين للهجرة .

ولا حاجة لبناء قبة أو وضع حديث ليحج الناس إليها بعد أن سيطر الأمويون على الحجاز كله ، وقتلوا عبد الله بن الزبير الذي بوع هناك، فهذا كذب ملفق مفضوح قد كشفته أحداث التاريخ ووقائعه .



(5) - ثم إن حديث: (لا تشد الرحال...) الذي زعم أنه موضوع مكذوب، قد أخرجته الكتب الستة الموثوقة بما فيها الصحيحان البخاري ومسلم ومع كتب السنن الأربعة .

ولم ينفرد برواية الحديث الزهري - كما زعم المستشرق الأفاك، بل أخرجته البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من غير طريق الزهري ، وأخرجته مسلم من ثلاث طرق: إحداهما من طريق الزهري، والثانية من طريق جرير عن ابن عمير عن قرعة عن أبي سعيد ، والثالثة: عن طريق ابن وهب عن عبد الحميد بن جعفر عن عمران ابن أبي أنس، عن سلمان الأغر، عن أبي هريرة . فالزهري لم ينفرد بهذا الحديث كما ادعى اليهودي جولدزيهر.

(6) - ثم إن الحديث رواه الزهري عن شيخه سعيد بن المسيب، ومن المعلوم أن سعيداً - رحمه الله - ما كان ليسكت عن الزهري لو أنه وضع الحديث - وهذا غير وارد ولا متصور من إمام شهدت له الأجيال بالصدق والأمانة، وسعيد بن المسيب هو الذي أُوذي من قبل عبد الملك . وعاش سعيد بعد مقتل عبد الله بن الزبير عشرون سنة، حيث توفي سنة ثلاث وتسعين للهجرة، فكيف سكت عن الزهري كل هذه المدة ؟؟؟ .

(7) - لو فرضنا - جداراً - أن الزهري وضع هذا الحديث إرضاء لعبد الملك فلماذا لم يصرح الزهري في هذا الحديث بفضل قبة الصخرة، حيث أراد عبد الملك من الناس أن يحجوا إليها كما افترى جولدزيهر.

وكل الذي ورد في الحديث فضل الصلاة في المسجد الأقصى بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي، وفضل الزيارة، وجواز شد الرحال إليها بقصد الصلاة في أي من المساجد الثلاثة.

وهذا الفضل مشار إليه في القرآن الكريم في قوله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير} . (الإسراء: 1) .

فأين ذلك الكلام الذي افتراه جولدزيهر وأنه وارد في الحديث الموضوع مما تقول به على عبد الملك وأنه أراد الحج إلى القبة بدلاً من الكعبة، ويبدو أن المستشرق يسطاد في الماء العكر، فقد أخذ هذه الكذبة من اليعقوبي الشيعي في تاريخه، وكلامه في حق الأمويين غير مقبول؛ لأنه عدو لهم، وكلام العدو في عدوه غير مقبول .

ولا غرو أن جولد تسيهر يركز همه على قضية نمو الأحاديث وتطور السنة النبوية وينطلق في إثارة هذه الشبهة والتي يومئ بها إلى وضع الأحاديث ونسبتها للرسول الأعظم ﷺ ينطلق في ذلك من فرضية مسلمة دون أن يتحشم عناء البحث والتحقيق فيها وهي: أن السنة لم تدون إلا في القرن الثاني؛ أي أي يرفض قسماً كبيراً من الأحاديث أن تكون وثيقة رسمية للإسلام في عهده الأول عهد الطفولة ومن دعوى صدق هذه الفرضية احتجاجه بحديث النهي عن كتابة الحديث زمن النبي ﷺ من قبله (6) ونهي الصحابة من حاولوا زمنهم الإقبال على ذلك والإعراض عنه، وقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه

الإمام مسلم رضي الله عنه. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ((لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي فليتبوأ مقعده من النار)). وما رواه الإمام أحمد عنه أنه قال: ((كنا فعودا نكتب ما نسمع من النبي ﷺ فخرج علينا فقال: ((ما هذا تكتبون))؟ فقلنا: ما نسمع منك. فقال: ((أكتب مع كتاب الله؟ إحمضوا كتاب الله وحده)) قال فجمعنا ما كتبنا في سعيد واحد ثم أحرقناه بالنار قلنا: أي رسول الله. أنتحدث عنك؟ قال: ((نعم تحدثوا عني ولا حرج ومن كذب علي فليتبوأ مقعده من النار)). قال: فقلنا يا رسول الله أنتحدث عن بني إسرائيل؟ قال: ((قال نعم تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، فإنكم لا تحدثون عنهم بشيء إلا و قد كان فيهم أعجب منه)). وهناك من النصوص الكثيرة التي وردت عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين تحمل نهيهم عن كتابة الحديث وشديد الامتناع من ذلك.

فهذا الصديق أبو بكر رضي الله عنه، كما يذكره الحافظ الذهبي في التذكرة: ((ومن مراسيل ابن أبي مليكة أن الصديق رضي الله عنه جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: ((إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه)) ملاحظة (1).

وأخرج الحاكم عن القاسم بن محمد أنه قال: قالت عائشة: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ فكانت خمسمائة حديث. فبات ليلة يتقلب كثيراً. فغمي فقلت: تتقلب لشكوى أو لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك، فجمته بها. فدعا بنار فأحرقها وقال: خشيت أن أموت وهي عندك فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثني. فأكون قد تقلدت ذلك. وأخرجه أيضاً أبو أمية الأحوص بن المفضل الغلابي عن القاسم أو ابنه عبد الرحمن، وزاد: ويكون قد بقي حديث لم أجده فيقال: لو كان قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خفي على أبي بكر إني حدثتكم الحديث ولا أدري لعلي لم اسمعه حرفاً حرفاً. ذكره الذهبي في التذكرة على الحاكم بنحو الرواية الأولى وقال: فهذا لا يصح.

وهذا عمر الفاروق رضي الله عنه. روى ابن عبد البر عن قرظة بن كعب: أنه قال: خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار: فتوضأ فغسل اثنتين، ثم قال: ((أندرون لم مشيت معكم؟ قالوا: نعم نحن أصحاب رسول الله مشيت معنا: فقال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم. جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ. امضوا وأنا شريككم)).

فلما قدم قرظة قالوا حديثاً. قال: نهانا عمر بن الخطاب، وذكره الذهبي مختصراً. وروى الذهبي في التذكرة: أن أبا هريرة سئل: أكنت تحدث زمان عمر هكذا؟ فقال: لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثتكم لضربني بمخرقته وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم عن أبيه: أن

عمر حبس ثلاثة: ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري فقال: ((قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ)).

وروى البيهقي في المدخل وابن عبد البر عن عروة بن الزبير: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنت يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك فأشاروا عليه بأن يكتب فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله. وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً.

فالنصوص التي أسندت إلى النبي ﷺ ومتضمنة حكم النهي. يرد الدكتور مصطفى الأعظمي في كتابه [دراسات في تدوين الحديث النبوي] على هذا الزعم الذي ينطلق منه جولد تسيهير وكثير من المستشرقين كفرضية مسلمة. أن النهي عن كتابة الحديث مطلقاً. ويشير إلى هذا التوظيف غير المسلم لنص الحديث في لنسق العام للسنة. فإن النهي الوارد في نظر الدكتور مصطفى الأعظمي إنما متضمن في النهي عن كتابة القرآن والحديث معا في صفحة واحدة، منعا للتباس والاختلاط بين القرآن والحديث النبوي، وهناك من يرجح على أن النهي كان في صدر الإسلام ، وقبل أن يتمكن حفظ القرآن في الصدور والصحف ثم جاءت الإباحة بعد ذلك وقد أثبتت الدراسات العلمية والتاريخية كما يقول المرحوم مصطفى السباعي. في كتابه [السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي] أن هناك صحفا كتبت زمن النبي ﷺ كعبد الله بن العاص، وسمرة بن جندب، وجابر بن عبد الله ، وزيد بن ثابت ، ويشير إلى ذلك الدكتور فؤاد سيزكين في محاضرة ألقاها بمكة المكرمة.

فالنهي عن كتابة السنة إذن كان في بداية العهد الإسلامي، خوفاً للتباس القرآن بالحديث النبوي، ثم جاء الإذن بالكتابة بعد أن قوي الإيمان، واستقر الإيمان في الصدور، مثلها مثل النهي عن زيارة المقابر الوارد في السنة، وهكذا كان في بادئ الأمر عندما كان المسلمون حديثي عهد بالجاهلية ووثنياتها، وأصنامها، وخوفاً من العودة إلى الوثنية ثم أذن به الرسول ﷺ قائلا: ((...ألا فروروها.. فإنها تذكركم بالآخرة...)).

وهناك صحف أخرى. روى رافع بن خديج قال قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: (( أكتب ولا حرج )) .وعلى غرار ذلك كان حرص الصحابة على حفظ السنة النبوية في الصدور قبل تدوينها وتقييدها بالكتابة ولذلك فعلماء الحديث يفضلون طريق السماع ويقدمونها على طريق الكتابة والمناولة من طرق التحمل. وهذا ما يبرره كثير من النصوص. قد روي عن أبي نضرة أنه قال: قيل لأبي سعيد الخدري: لو اكتتبنا الحديث، فقال: لا نكتبكم خذوا عنا كما أخذنا عن نبينا ﷺ .

وروي عنه أنه قال: قلت لأبي سعيد الخدري: ألا نكتب ما نسمع منك؟ قال: أتريدون أن تجعلوها مصاحف. إن نبيكم ﷺ كان يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا كما كنا نحفظ.

فامتناع الصحابة عن كتابة الحديث كان من باب بداعوجية تربوية لا تحمل أي معنى من معاني عدم الجواز أو الحرمة أو المنكر.

وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: ((قيدوا العلم بالكتابة)). وخطب الرسول ﷺ يوم فتح مكة في الناس فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال: يا رسول الله أكتب لي \_ فقال: ((اكتبوا له)). قال العلماء: ليس يروى في كتابة الحديث في حياة الرسول أصح من هذا الحديث لأن فيه الأمر الصريح بالكتابة. وتتضافر هذه النصوص في إثبات هذه الواقعة التاريخية وتوثيقها، والتي إنبرى لها الكثير من المفكرين الغربيين والمستشرقون، ومن ساروا على نهجهم من المسلمين بالإنكار.

ومما روي عن البخاري حدثنا علي بن عبد الله، قال حدثنا سفيان، قال، حدثنا عمرو، قال أخبرني وهب بن منبه، عن أخيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: ما من أصحاب النبي ﷺ، أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان منعبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب (( تابعه معمر، عن همام عن أبي هريرة.

وقد روي أيضاً عن الرسول ﷺ، أنه كتب كتاب الصدقات والديات، والفرائض، والسنن، لعمر بن حزم وغيره، كما يروي ذلك صاحب كتاب ((جانع بيان العلم وفضله)).

بل قد وصل الأمر بأنس بن مالك رضي الله عنه الذي لازم الرسول ﷺ، ملازمة تكاد تكون تامة طيلة عشر سنوات، أنه كان يملي الحديث على جموع من الطالبين، فإذا أكثر عليه الناس، واحتاجوا إلى صحف يكتبون عنها، جاء إليهم بها من عنده فألقاها إليهم، ثم قال: هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله ﷺ، وعرضتها عليه.

وليس هذا فحسب بل كانت كتبة الحديث زمن الصحابة عقب وفاة النبي ﷺ في غاية الحرص والتحري لجمع هدى المصطفى ﷺ.

والقمين بالذكر أن هذه النصوص والوقائع التاريخية لدليل قاطع على بطلان دعوى المستشرقين ومن اقتدو بهم، بأن السنة لم تدون إلا في زمن متأخر أي في النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة؛ أي بعد أن دب الخلاف السياسي والمذهبي بين المسلمين وكثرت الطوائف والفرق. وصار كل منهم ينتصر لمذهبه واتجاهه. و على غرار ذلك فإن الفرضية التي بنى عليها المستشرقون مثل: جولد تسيهر وشاخت أباطيلهم حول سنة المصطفى ﷺ. وطعونهم وكونها المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي.

ولا غرو أنه بعد أن وضع المستشرقون وعلى رأسهم المستر جولد تسيهر وشاخت وشيرنجر فرضيتهم، أن السنة لم تدون إلا بعد مضي زمن طويل أفضى فيه المسلمون إلى ذاكرة بالية اعترتها النسيان والبهتان، إلى أطلال نفوس وصدور أتى عليها تراحم الضغائن والأحقاد اثر الصراعات التي اضطرم سعارها بين المسلمين، يذهب دراويش الفكر الغربي. هؤلاء إلى إثارة ظاهرة الوضع في الحديث.

تحت اصطلاحات مختلفة تارة يغمزون إليها \_ الظاهرة \_ بنمو الحديث وأخرى يلمزون بتطور الحديث وأخذت هذه الظاهرة مساحة كبيرة من اتهامات هؤلاء.

إن التركيز الفاحش للمستشرقين على مسألة الوضع في تاريخ السنة النبوية. الذي لا ينكره عالم ولا فقيه؛ إقرارهم هذا وإدراكهم العميق لأثر هذه الظاهرة على غير المحدثين الجسيم، حملهم على التجنيد العلمي لنخل مادة الحديث بمنهج أجمعوا على ضوابطه ومعامله، ويعبر قول الشعبي عن دقة السلف الصالح الدقيقة و يبين مدى ما كانوا عليه من تحري للصواب، فقال: ((والله لو أصبت تسعا وتسعين مرة، وأخطأت مرة لعدوا علي تلك الواحدة)).

والأغرب حينما يسند [جولد تسيهر بداية الوضع لعلماء المدينة وأتحم هم الذين بدأوا بالوضع للأحاديث، وكان العوالم الإسلامية وأمصارها شحت بالعلماء و الصحابة، ليس هناك إلا هؤلاء، لأنه لو كان هناك صدق في ادعائه فكيف كان لعلماء مكة ودمشق والكوفة والبصرة ومصر أن يسكتوا على ذلك كان في مكة: عطاء ، وطاووس، ومجاهد، وعمر بن دينار، وابن جريج، وابن عيينة. وكان في البصرة: الحسن ، وابن سيرين ، ومسلم بن يسار وأبو الشعثاء، وأيوب السختياني، ومطرف بن عبد الله بن الشخير، وكان في الكوفة: علقمة، والأسود، وعمرو بن شرحبيل ، ومسروقة بن الأجدع، وعبيدة السلماني، وسويدة بن غفلة وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وعمر بن ميمون، وإبراهيم النخعي وعامر الشعبي، وسعيد بن جبير، وكان في الشام: عبد الرحمن بن جبير، ومكحول، وعبد الرحمن بن غنم الأشعري، وسليمان بن حبيب، وفي مصر: الليث بن سعد، وعبيد الله بن أبي جعفر.

ويبرر فريته وثافته على هؤلاء الاجلاء، وكأنهم يجيزوا الكذب دفاعاً عن الدين في قوله: ((ونظراً لأن ما وقع في أيديهم (العلماء) من ذلك لم يكن يسعفهم في تحقيق أغراضهم، أخذوا يخرعون من عندهم أحاديث رأوها مرغوباً فيها ولا تنافي الروح الإسلامية، ويبرروا ذلك أمام ضمائرهم بأنهم يفعلون هذا في سبيل محاربة الطغيان والإلحاد والبعد عن سنن الدين)).

ليس هناك من علماء الأمة العقلاء من يجوز الكذب على رسول الله ﷺ أو الحديث عنه بما لم يقله، وفي أي حال من الأحوال. ومن ذهب مذهب الجواز لذلك بدعاوى شتى إنما ذلك جزاؤه مقعد من نار يوم القيامة إذا كان متعمداً. فالتحديث بحديث معلوم الكذب على رسول الله ﷺ منكر يستحق صاحبه أشد العذاب فمن باب أول أن يكون الكذب على رسول الله ﷺ أقوى حكم على حرمة وصاحبه جزاؤه أشد يوم القيامة. ففي الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن سمرة بن جندب، قال قال رسول الله ﷺ : (( من حدث عني بحديث يرى انه كذب، فهو أحد الكذابين )) .

وقال حجة الإسلام الغزالي في الأحياء : (( وقد ظن ظانون، أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال، وفي التشديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح، وهو خطأ محض، إذ قال ﷺ : )) من كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار))، وهذا لا يترك إلا لضرورة، إذ في الصدق مندوحة عن

الكذب، ففيما ورد من الآيات و الأخبار كفاية عن غيرها، وقول القائل، إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه، وما هو جديد فوقه أعظم، فهذا هوس، إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ، و على الله تعالى، ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة، فلا يقاوم خير هذا أصلا والكذب على رسول الله ﷺ ومن الكبائر التي لا يقاومها شيء، نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين )) .

والخليق بالذكر في هذه المسألة، أنه هناك من المستشرقين من ذهب بعيدا في تمديد الجذور الأولى لهذه الظاهرة إلى عهد النبوة؛ أي في حياة الرسول ﷺ وهناك من كبار المفكرين المسلمين من تأثروا بهذه النزعة. كما ذهب إلى هذا الزعم صاحب ((فجر الإسلام)) أحمد أمين. فقال: ((ويظهر أن هذا الوضع حدث في عهد الرسول، فحديث (( من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار )) يغلب على الظن أنه إنما قيل لحادثة زور فيها على الرسول )) (( ولا يغني الظن من الحق شيئا )) إنه إستنتاج باطل لا يقوم على أدنى الشروط العلمية والمنطقية للاستدلال. فإن الأستاذ تتجلى في آرائه ومذهبه أثر المنهج الإستشراقي فهو يأخذ من النص الجزء الذي يؤيد وجهته ويثبت رأيه فلو تم إيراد النص كاملا لبان للعقل علة الوعيد لمن كذب على الرسول ﷺ متعمدا. ولا يجهد نفسه أن يثبت أو يحقق في المسألة. ونسي أن الغرب لا يقبل الظن في الحقائق التاريخية.

والتاريخ ينفي نفيًا قاطعا قائما على القواعد العقلية والبحث والاستنتاج التاريخاني أن يكون الوضع وقع في حياة الرسول ﷺ، ولا أحدا هناك ممن أسلم وصحبه زور عليه كلاما ورواه على أنه حديثه عليه الصلوات والسلام، ولو وقع مثل هذا ما سكت الصحابة على ذلك ولدون التاريخ ثائرتهم على من فعل ذلك. كيف وكان حبههم لصاحبهم يحملهم على أن يفتدوه بالنفوس والمال والبنين، فكثيرا ما تردد كلمة ((...اأذن لي يا رسول الله أن أقطع رقبتة...)) إذا ما كان الأمر يتعلق بالمساس بقداسة النبوة أو الوحي.

بيد أن هناك من النصوص ما يحدد زمن الافتراء على النبي ﷺ والكذب عليه، روي عن محمد بن سيرين (ت110هـ) قال: ((لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سمو لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)).

ويذكر الشيخ صبحي صالح: أن ظهور الوضع كان في سنة إحدى وأربعين بعد الهجرة، على عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، حين تنازع المسلمون شيعة وأحزابا، وانقسموا سياسيا إلى جمهور وخوارج وشيعة، ((وركبوا . كما قال ابن عباس . الصعب والذلول)). ومع الأسف أن هذا الانقسام والصراع السياسي بين طوائف مسلمة أعقبه ولحقه اختلاف وانقسام من حيث التعامل مع النصوص وإثباتها وتفسيرها. فأخذ الصراع بينهم شكلا دينيا. لإضفاء طابع الشرعية والقداسة الربانية على مذهبه ورأيه وموقفه. فعمدوا إلى تأويل القرآن بلا ضابط والتحديث عن رسول الله ﷺ تأييدا لآرائهم

ومواقفهم. وطبيعي ألا يكون مع كل حزب وطائفة ما يؤيد آراءهم ومواقفهم في كل ما يدعون. فعمل بعضهم على أن يحملوا نصوص السنة ما لا تحتتمل، وأن يضع بعضهم على لسان الرسول أحاديث تؤيد دعواهم، بعد أن عسر عليهم ذلك بالنسبة للقرآن بحفظه وتوفر المسلمين على روايته وتلاوته، ومن هنا كان حظ سنة المصطفى ﷺ وعرضه كانا عرضة لوضع الحديث واختلاط الصحيح منها بالموضوع. وعلى غرار ما نوهنا نجد أن أول من فتحوا باب الشؤم في تاريخ المسلمين هم الشيعة وروافضها وكان ذلك فيما اصطلح على تسميته بفضائل الأشخاص. فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة في فضل أئمتهم ورؤساء أجزائهم. كما يذكر ذلك، ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة. ما مفاده: ((اعلم أن أصل الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة الخ... وقد قابلهم جهلة أهل السنة بالوضع أيضا)).

وتعتبر الرافضة أكثر الطوائف والفرق الإسلامية كذبا ووضعا للحديث. قد سئل الإمام مالك عن الرافضة فقال: لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون، كما أشار إلى ذلك صاحب منهاج السنة 13/1.

ويعزز هذا الرأي ما قاله: شريك بن عبد الله القاضي. وقد كان معروفا بالتشيع مع الاعتدال فيه: قال: ((احمل عن كل من لقيت إلا الرافضة، فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه ديناً)).

والأحاديث الموضوعية من قبل هذه الطائفة في فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. كثيرة وغيرها أكثر. منها قولهم أن النبي ﷺ عند رجوعه من حجة الوداع جمع الصحابة في مكان يقال له ((غدير خم)) وأخذ بيد علي رضي الله عنه ووقف به على الصحابة جميعا وهم يشهدون وقال: ((هذا وصيي وأخي والخليفة من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا)) هذا ما يعرف بحديث الوصية بالخلافة لعلي رضي الله عنه، ولا داعي لذكر آراء علماء الحديث في هذا النص. ومن قولهم أيضا ((من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في تقواه وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في عبادته فلينظر إلى علي)). وقولهم: ((حب علي حسنة لا يضر معها سيئة. وبغضه سيئة لا ينفع معها حسنة)). وقولهم: ((أنا ميزان العلم، وعلي كفتاه والحسن والحسين خيوطه، وفاطمة علاقته، والأئمة منا عمود توزن فيه أعمال المحبين لنا والمبغضين لنا)). وقولهم في معاوية ((إذا رأيت معاوية على منبري فاقتلوه)) حتى قال الخليلي في الإرشاد: ((وضعت الرافضة في فضائل علي وأهل بيته نحو ثلاثمائة ألف حديث)). وقابل هؤلاء طائفة انتصرت لمعاوية فوضعوا أحاديث مثل قولهم: ((الأمناء ثلاثة، أنا وجبريل ومعاوية)) وقولهم في حديث الخلافة لبني العباس: أن النبي ﷺ قال للعباس: ((إذا كان سنة خمس وثلاثين ومائة فهي لك. ولولدك، السفاح والمنصور والمهدي ولقد واجه علماء هذه الأمة جسارة هذا الشطط ممن ركبوا أهواءهم وتنكبوا للحق إنكارا وبطرا، فأبان هؤلاء الأجلاء أسباب الوضع وفتات الوضعين. ومن هذه الأسباب: ((غفلة المحدث؛ أو اختلاط عقله في آخر حياته، أو التكبر عن الرجوع إلى الصواب بعد إستبانة الخطأ لسهو مثلا. ومنهم قوم وضعوا الأحاديث لا يقصدون إلا الترغيب والترهيب،

ابتغاء وجه الله فيما يزعمون، وآخرون وضعوها انتصارا لمذهبهم، ومنهم طائفة أهمتهم أنفسهم، فاختلغوا ما شاءوا للتقرب من السلاطين والأمراء، أو لاستمالة الأغنياء إلى الإعطاء، ومن هذا الصنف القصاص الذين انتحلوا وظيفة الوعظ والتذكير في المساجد والمجامع، وأخذوا يهدمون من أركان هذا الدين، لفسل يقتنونه، أو حطام حبيث يلتهمونه)).

((..ومنهم زنادقة قصدوا إفساد الشريعة والتلاعب بالدين، ((يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره)) فعملوا على لبس الحق بالباطل، وخلط السم بالترياق، وهيات لهم الفرص في الأزمان الغابرة مجالا فسيحا لهذا البهتان، حتى شحنوا الأذهان، وسودوا الدفاتر، وأفعموا الكتب بمفتريات(( ما أنزل الله بها من سلطان)) وقد سرى هذا الداء في كتب التفسير والسير والتاريخ، وتلققتها العامة من سلامة صدر، إما لشهرة المعزو إليه، أو لاستبعاد كذبه على الرسول ﷺ، فخبطوا وحادوا عن الحادة: ((وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)).

### وكان أخطر هذه الأسباب:

**أولها:** الصراع السياسي وما ارتكس عنه من خلافات كما أمأت سابقا. أن الانقسام الذي مزق الأمة بعد الفتنة نجم عنه ظهور الوضع في السنة. فقد حاولت الأحزاب والشيع أن تدعم مواقفها وآراءها بتأويل الآيات القرآنية وفق ما يهوى كل حزب واختلقوا كما هائلا من الأحاديث نسبوها للرسول ﷺ بمتانا وزورا لتحظى آراؤهم بالقداسة النبوية. وخطر هذه الأمة أنها تلقى من العامة القبول لأنها تغشى الناس وهم في حالة انفعال انتصارا لجهة. وما يصحب هذه الافتراءات من إكراه الجهة ذات القوة والسلطان إذا كان ذلك يخدم مصلحتها.

**ثانيها:** اجتماع الزهد والتقوى بالجهل(التصوف): فهذه الفئة طويلة وعريضة ودوافع وضعها للأحاديث كثيرة ومتنوعة. منها ما هو دافع تقريب الناس من خالقهم بزيادة القربات والدعوة للزهد في الدنيا بالترغيب والترهيب، ومنها استهواء ذوي السلطان لطرقهم و سلوكياتهم ومنها نقمة على المعترضين على ابتداعهم وانتقاد طرقهم بميزان الكتاب والسنة فينتصرون لأدبياتهم ويدافعوا عنها بأحاديث ونصوص مؤولة تأويلا غير صحيح. فيفسدوا على العامة فهمهم لهدي نبيهم الكريم ومقاصد دينهم ومبادئه. ولمواجهة هذا الزخم في تراث الأمة وأصوله ونزغ هؤلاء أئمة الحمق. وضع علماء الحديث قواعد ضابط يميزون بها الحديث الصحيح من السقيم من حيث السند والمتن على حد سواء. وهي: كما ألخصها عن المرحوم مصطفى السباعي في كتابه[السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي]: قواعد نقد السند:

1 - أن يكون راويه كذابا معروفا بالكذب، ولا يرويه ثقة غيره وقد عنوا بمعرفة الكذابين وتواريخهم وتتبعوا ما كذبوا فيه بحيث لم يفلت منهم أحد.



2 - أن يعترف واضعه بالوضع، كما اعترف أبو عصمة نوح بن أبي مريم بوضعه أحاديث فضائل السور وغيره.

3 - أن يروي الراوي عن شيخ لم يثبت لقياه له أو ولد بعد وفاته، أو لم يدخل المكان الذي ادعى سماعه فيه، كما ادعى مأمون بن أحمد الهروي أنه سمع من هشام بن عمار. فسأله الحافظ ابن حبان: متى دخلت الشام؟ قال: سنة خمسين و مائتين، قال ابن حبان: فإن هشام الذي تروي عنه مات سنة خمس وأربعين ومائتين.

4 - وقد استفاد الوضع؛ أي يتوصل إليه من حال الراوي وبواعثه النفسية، مثل ما أخرجه الحاكم عن سيف بن عمر التميمي أنه قال: كنا عند سيف بن طريف فجاءه ابنه من الكتاب يبكي فقال مَالِكُ؟ قال ضربني المعلم، فقال سعد: لأخزينهم اليوم، حدثني عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً: ((معلمو صبيانكم شراركم، أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين)) ومثل حديث ((المريسة تشد الظهر)) فإن واضعه محمد بن الحجاج النخعي، كان يبيع المريسة.

### أما قواعد نقد المتن فهي:

1 - ركافة اللفظ بحيث يدرك العليم بأسرار البيان العربي أن مثل هذا اللفظ لا يمكن أن يصدر عن سيد الفصحاء: رسول الله ﷺ لما يتسم به هذا اللفظ من الركافة، وكما يقول الإمام ابن دقيق العيد، أن أهل الاختصاص من أصحاب هذا الفن قد حصلت لهم ملكة لكثرة ممارستهم لألفاظ هدي الرسول ﷺ فهم يعرفون ما يجوز أن يكون من ألفاظ النبي وما لا يجوز.

2 - فساد المعنى وذلك بمخالفة الحديث لبدهيات العقول: ((مثل: أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلّت عند المقام ركعتين)) فهذا النص مخالف للمعقول. وللبديهة. أو يكون النص في معناه المحتمل مخالفاً للقواعد العامة في الحكم والأخلاق مثل ((جور الترك ولا عدل العرب)).

أو يكون النص يحظ ويدعو إلى الشهوة و المفسدة مثل: ((النظر إلى الوجه الحسن يجلي البصر)). أو يكون مخالفاً لطبيعة الحس والمشاهدة. مثل ((لا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة)). أو مخالفاً للقواعد الطبية ولمعطيات الحقائق العلمية مثل: ((الباذنجان شفاء من كل داء)). أو يكون مخالفاً ومناقضاً لما تقتضيه العقيدة السليمة في حقه تعالى مثل: ((إن الله خلق الفرس فأجراها فعرقت فخلق نفسه منها)). أو يكون مخالفاً لسنن الله في خلقه و مكوناته مثل: ((أن نوحاً لما خوفه الغرق قال احملني في قصبتك هذه) يعني السفينة) وأن الطوفان لم يصل إلى كعبه وأنه كان يدخل يده في البحر فيلتقط السمكة من قاعه ويشويها قرب الشمس.

3 - مخالفته لصريح القرآن الذي لا يقبل التأويل مثل: ((ولد الزنا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء)) فقد خالف هذا النص قوله تعالى: ((وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)).

- 4 - إذا كان مخالفاً للسنة المتواترة مثل: ((إذا حدثتم عني بحديث يوافق الحق فخذوا به حدثت به أو لم أحدث)). فإنه جاء مخالفاً للحديث المتواتر: ((من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)).
- 5 - إذا كان الحديث موافقاً لمذهب الراوي وقد عرف عنه مغالاته في التعصب إلى مذهبه والانتصار لآراء أصحابه مثل أن يروي رافضياً بتعصبه المقيت حديثاً يبالغ فيه في فضائل أهل البيت. أو يروي مرجئاً متعصباً أيضاً حديثاً في الإرجاء.
- 6 - أن يتضمن النص الذي ينسب إلى رسول الله ﷺ أمراً أو معناه وقع بمشهد جمع كبير فيروي هذا النص واحد فقط.
- 7 - أن يكون النص يبالغ في ثواب المحسن وإن قل أو صغر فعله الحَيْر، أو يبالغ في العقاب و الوعيد لفعل الصغائر من الذنوب.
- هذه أهم موازين الحديث من حيث المتن والمعنى. واللفظ أوجزناها في هذه العجالة، وهناك موازين دقيقة أبدعها أهل الإخلاص من أصحاب الاختصاص لتمييز الصحيح من السقيم في الحديث. أفلا يكفي هذا أن يطمئن الباحث بالكم الصحيح من سنة المصطفى ﷺ التي دونها العدول من هذه الأمة.



### اتهام المحدثين وعلماء السنة بإهمالهم المتن و اهتمامهم بالسند :

على الرغم من وضوح المنهج الذي سلكه المحدثون لحفظ السنة وضمان صيانتها عن العبث والتحريف ، والافتراء والدرس ، فقد وُجد من شكك في سلامة هذا المنهج ونزاهته من خلال بعض الشبهات التي أثّرت حول منهج النقد عند المحدثين ، بدأً من التشكيك في الإسناد وجدواه وأهميته والادعاء زوراً وبهتاناً بأنه منهج عقيم لم يثمر إلا الخلاف والفرقة، وبالتالي فليس له أثر يذكر في حفظ الحديث وصيانتها ، وانتهاءً بالادعاء بأن المحدثين عولوا في تقديمهم للأحاديث على الأسانيد فقط ، مغفلين تماماً النظر إلى

المتون والألفاظ ، وبالتالي انصبت جهودهم في هذا المجال على الجانب الشكلي السطحي أو ما أطلقوا عليه النقد الخارجي ويعنون به نقد السند ، على حين غفلوا أو تغافلوا عن المضمون والمقصود أصالة من الحديث ، وهو ما أطلقوا عليه النقد الداخلي ، ويعنون به نقد المتون والألفاظ ، الأمر الذي نتج عنه تصحيح كثير من المتون التي حقها النقد والرد بسبب هذا المنهج الذي اعتمده المحدثون .

وقد ردد هذه الشبهة عدد من المستشرقين تحت مسمى النقد الخارجي و النقد الداخلي كما فعل شبرنجر في مقال له نشر في (مجلة العلوم الاجتماعية) التي تصدر بألمانيا الشرقية. حينما تناول الحديث عند العرب، ويستدل هذا الأخير بمقولة تنسب إلى ثلاثة فحول من كبار علوم الحديث وهم: الإمام محمد بن حنبل /وعبد الرحمن بن مهدي/ وعبد الله بن المبارك، على أنهم كانوا يقولون: (( إذا روينا في الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا)).

ويذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن غرض هؤلاء من التجديد ليس مقابلة أحدهما، بالآخر كتقابل الصحيح بالضعيف في نظرنا نحن، وإنما كانوا إذا رووا في الحلال والحرام ، يتشددون فلا يحتجون إلا بأعلى درجات الحديث، وهو المتفق في عصرهم على تسميته ((بالصحيح)) فإن رووا في الفضائل ونحوها مما لا يمس الحل والحرمة لم يجدوا ضرورة للتشدد وقصر مروياتهم على الصحيح، بل جنحوا إلى قبول ما هو دونه في الدرجة وهو الحسن الذي لم تكن تسميته قد استقرت في عصرهم، وإنما كان يعتبر قسما من الضعيف في اصطلاح المتقدمين وإن كان في نظرهم أعلى درجة مما يصطلح بعدهم على وصفه بالضعيف.

ومنهم "شاخت" الذي يقول : " ومن المهم أن نلاحظ أنهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للإسناد نفسه " .

ويقول " جولد زبهر " : " في النقد الإسلامي للسنة تهيمن النزعة الشكلية في القاعدة التي انطلق منها هذا العلم ، والعوامل الشكلية هي بصورة خاصة العوامل الحاسمة للحكم على استقامة وأصالة الحديث ، أو كما يقول المسلمون : على صحة الحديث ، وتختبر الأحاديث بحسب شكلها الخارجي فقط " .

ويقول " كاتياني " : " كل قصد المحدثين ينحصر ويتركز في وادٍ جذب ممثل من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروي ، ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه " .

ويقول " غاستون ويت " : " وقد درس رجال الحديث السنة بإتقان ، إلا أن تلك الدراسة كانت موجهة إلى السند ومعرفة الرجال ، والتقائهم ، وسماع بعضهم من بعض " ثم قال: " لقد نقل لنا الرواة حديث الرسول مشافهة ثم جَمَعَهُ الحُقَاط ودَوَّنُوهُ إلا أن هؤلاء لم ينقدوا المتن ، لذلك لسنا متأكدين من أن الحديث قد وصلنا كما هو عن رسول الله ، من غير أن يضيف إليه الرواة شيئاً عن حسن نية في أثناء روايتهم الحديث " .

ومع الأسف الشديد ، أن هذه الشبه التي أثارها المستشرقون حول منهج النقد عند المحدثين ، وبنوا عليها دراساتهم وأبحاثهم ، قد وُلِعَ بها بعض المستغربين من أبناء المسلمين ، حيث وجدت لها آذناً صاغية تلقفتها وروجت لها ، من غير وعي أو تمحيص بل ربما تحت ستار المنهج العلمي والبحث الموضوعي ، وما هي إلا صدئاً لما رده من قبلهم من المستشرقين .

يقول " أحمد أمين " في كتابه ( فجر الإسلام ) : " وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها ، ولكنهم - والحق يقال - عنوا بنقد الإسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن " ، ثم فصل هذا بقوله : " فقل أن تظفر منهم بنقد من ناحية أن ما نسب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يتفق والظروف التاريخية ، أو أن الحوادث التاريخية تناقضه ، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي ، يخالف المؤلف من تعبير النبي - صلى الله عليه وسلم - أو أن الحديث أشبه في شروطه وقبوده بمتون الفقه وهكذا .. " .

ويقول في ( ضحى الإسلام ) : " وفي الحق أن المحدثين عنوا بعناية تامة بالنقد الخارجي ، ولم يعنوا هذه العناية بالنقد الداخلي " .

ويقول " محمود أبو رية : " والمحدثون لا يعنون بغلط المتون ، ويقولون متى صح السند صح المتن " . ويقول " أحمد عبد المنعم البهي " : " إن رجال الحديث كان كل همهم منصرفاً إلى تصحيح السند والرواية دون الاهتمام بتمحيص متن الحديث نفسه الذي هو النص " . مع أنه من المعلوم الواضح لدى كل من له أدنى معرفة وإلمام بهذا العلم ، أن المحدثين لم يألوا جهداً في نقد المتون والكشف عنها كما فعلوا تماماً في الأسانيد ، فعندما عرّفوا الحديث الصحيح اشتروا لصحته خلوه من الشذوذ ، وسلامته من العلة القادحة ، وبينوا أن الشذوذ والعلة تقدحان في المتن كما تقدحان في الإسناد ، ومن ثم قرروا قاعدتهم المعروفة وهي أنه لا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن ، فقد يصح إسناد حديث مّا ، مع أن في متنه علة قادحة تقدح في صحته ، أو يكون هذا المتن شاذاً مخالفاً لما روي عن الثقات الأثبات ، مما يؤكد على أنهم لم يُعْطِلُوا متن الحديث وهم يبحثون شروط الأحاديث المحتج بها .

ثم إن ما أطلقوا عليه اسم النقد الداخلي - الذي يعنون به النظر في المتون - كان سابقاً في عهده على النقد الخارجي ، فقد استعمل الصحابة رضي الله عنهم هذا المقياس في فحص الأحاديث ، دون الوقوف عند الإسناد ، لما عُلم من عدالتهم وصدقهم ، وذلك أن السؤال عن الإسناد والإلزام به ، بدأ في مرحلة متأخرة عقب الفتنة التي بدأت بمقتل عثمان رضي الله عنه ، وأما النظر في متن الحديث فقد استعمل قبل ذلك من قِبَل الصحابة رضي الله عنهم ، من خلال عرض بعض الروايات على ما تقرر عندهم من الأصول والقواعد ، ومحكمات الكتاب والسنة ، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم أن عمر رضي الله عنه سمع حديث فاطمة بنت قيس وأن زوجها طلقها ثلاثاً فلم يجعل

لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سكنى ولا نفقة فقال عمر لا نترك كتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت لها السكنى والنفقة ، قال الله عز وجل : { لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ } (الطلاق:1) ، ومثله ما أخرجه الشيخان أن عائشة رضي الله عنها سمعت حديث عمر وابنه عبد الله أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ( إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ) فقالت : رحم الله عمر والله ما حدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الله يعذب المؤمنين ببكاء أحد ، ولكن قال : إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه ، وقالت حسبكم القرآن : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } (فاطر 18) ، زاد مسلم : " إنكم لتحدثوني غير كاذبين ولا مكذابين ولكن السمع يخطيء " .

وليس الغرض من إيراد هذه الأمثلة بيان صواب هذا الاجتهاد أو ذاك ، فقد يخالفه غيره من الصحابة في هذا الاجتهاد ، وقد يكون هناك وجه للجمع خفي عليه فقضى برد الحديث ، إلى غير ذلك من الأسباب ، ولكن الغرض بيان أن مقياس نقد المتون وعرضها على المحكمات والأصول الثابتة قد وجد مبكراً منذ عهد الصحابة حتى قبل دراسة الأسانيد .

ثم يقال كذلك : إن النقد الخارجي للأحاديث أي نقد الأسانيد الذي وصفوه بأنه شكلي - يتصل اتصالاً وثيقاً بالنقد الداخلي أو نقد المتون ، وذلك لأن توثيق الراوي لا يثبت بمجرد عدالته وصدقه وديانته ، بل لا بد من اختبار ضبطه أيضاً ، ولا يكون ذلك إلا بعرض مروياته على روايات الثقات الآخرين ، قال ابن الصلاح : " يعرف كون الراوي ضابطاً بأن تعتبر رواياته بروايات الثقات المعروفين بالضبط والإتقان ، فإن وجدنا رواياته موافقة لهم ولو من حيث المعنى ، أو موافقة لها في الأغلب والمخالفة نادرة عرفنا حينئذ كونه ضابطاً ثبناً ، وإن وجدناه كثير المخالفة لهم عرفنا اختلال ضبطه ولم نختج بمحدثه " ، وبناء على ذلك نشأت علوم جديدة كلها ناتجة عن مقابلة المتن المروي مع الأحاديث الأخرى ، كالمدرج ، والمضطرب ، والمقلوب ، والمصحف ، وزيادات الثقات ، كما نشأت علوم أخرى تبحث في المتن من حيث درايته كغريب الحديث ومختلفه ، وأسباب وروده ، وناسخه ومنسوخه ، ومشكله ومحكمه ، وكل ذلك يدخل في إطار نقد المحدثين للمتون واعتنائهم بها .

ومن الأمور التي استعان بها أئمة هذا الشأن في تقديمهم للمتون التاريخ ، فقد ضبطوا تواريخ الرواة ، وسنين ولادتهم ووفاتهم ، ورحلاتهم وأوطانهم ، وشيوخهم وتلاميذهم ، وذلك للكشف عن مروياتهم ، ومعرفة من أدركوه ممن لم يدركوه ، فالراوي الذي يدعي سماع شيخ لم يدركه ، أو يذكر أمراً يكذبه التاريخ يحكم على روايته بالطرح والترك ، ومما يذكر في ذلك ما جرى في زمن الحافظ الخطيب البغدادي حين أظهر بعض اليهود كتاباً بإسقاط النبي - صلى الله عليه وسلم - الجزية عن يهود خيبر ، وفيه شهادة الصحابة ، فعرضه الوزير آنذاك على الخطيب البغدادي فقال : هذا مزور ، فقيل له من أين قلت هذا ،

قال " فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام الفتح بعد خيبر ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات قبل خيبر بستين .

وقال إسماعيل بن عياش : كنت بالعراق فأتاني أهل الحديث ، فقالوا : هاهنا رجل يحدث عن خالد بن معدان ، فأتيته فقلت : أي سنة كتبت عن خالد بن معدان ، فقال : سنة ثلاث عشرة يعني ومائة ، فقلت أنت تزعم أنك سمعت بعد موته بسبع سنين .

يضاف إلى سبق ما وضعه المحدثون من أصول عامة ، وقواعد كلية يعرف بها الوضع في الحديث ، من غير رجوع إلى سنده ، وكلها متعلقة بالمتن ، وهي المعروفة عندهم بعلامات الوضع ، حيث جعلوا من علامات الوضع في الحديث مناقضته الصريحة للقرآن الكريم ، أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعي ، وركاكة لفظه أو معناه بحيث يشهد الخبير بالعربية باستحالة صدور مثل هذا الكلام عن أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء - صلى الله عليه وسلم - ، أو اشتماله على مجازفات ومبالغات لا تصدر عن عاقل حكيم ، أو أن يتضمن إفراطاً بالوعد العظيم على الأمر الصغير ، أو الوعيد الشديد على الأمر الحقيق ، أو مخالفته للحس والمشاهدة ، أو أن يكون خبيراً عن أمر جسيم تتوافر الدواعي على نقله ثم لا ينقله إلا واحد ، أو مناقضته للحقائق التاريخية الثابتة مثل الحديث المتقدم في وضع الجزية عن أهل خيبر ، أو أن يكون موافقاً لمذهب الرواي وهو متعصب غالباً في تعصبه ، إلى غير ذلك من العلامات التي يدركها جهابذة هذا العلم ومن لهم خبرة بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعرفة تامة بسننه وأحواله .

يقول الربيع بن خثيم : " إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار نعرفه به ، وإن من الحديث حديثاً له ظلمة الليل نعرفه بها " ، ويقول ابن الجوزي : " الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه في الغالب " ، وقال : " ما أحسن قول القائل : " إذا رأيت الحديث يباين المعقول ، أو يخالف المنقول ، أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع " .

وإن نظرة إلى كتب الموضوعات ، تبتك بما بذله العلماء من جهود جبارة في نقد المتن وتمحيصها ، في منهج غاية في العمق والموضوعية ، بعيد كل البعد عن السطحية والشكلية ، بما لا يدع مجالاً لظعن طاعن أو تشكيك مغرض ، فكيف يقال بعد ذلك كله إن متن الحديث لم يلق من العناية والاهتمام ما لقيه الإسناد؟! ، وصدق الله : { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } ( الرعد 17 )

المراجع :

- أصول منهج النقد عند أهل الحديث د . عصام البشير .
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د . مصطفى السباعي

- المستشرقون والحديث النبوي د. محمد بهاء الدين .
- منهج النقد في علوم الحديث د. نور الدين عتر .
- دفاع عن السنة د. محمد أبو شهبة .
- موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية الأمين الصادق الأمين

